سلسلة : النظريات الاجتماعية
(الكتاب العاشر)

فلــفريــدو بـــاريتـــو
ودورة الصفوة فى إطار النظام

دكتور
علي ليلة
أستاذ النظرية الإجتماعية
جامعة عين شمس

2006

المكتبة المصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
3 ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية
تليفاكس : 002/03/5840298
محمول : 0124686049



للطباعة والنشر والتوزيع

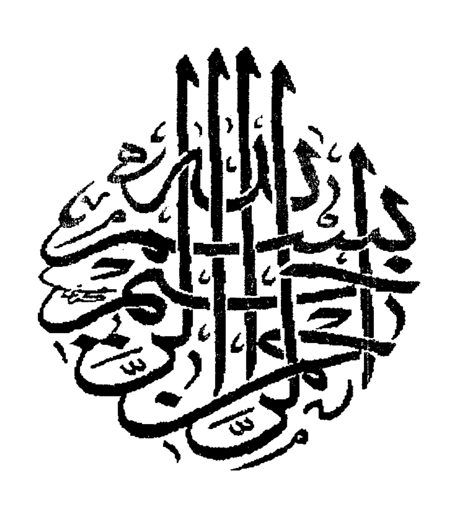
3 ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية

تليفاكس : 002/03/5840298

محمول : 0124686049

رقم الإيداع : 2005/20705

الترقيم الدولي : 5-241-411-977


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـــرس

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع **الصفحـة**

الفصل الثالث
دورة الصفوة
في إطار النظام

مقدمـــة.

شكلت نظرية فلفريدوباريتو بداية الجدل مع عصر التنوير ومجراته، وإذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية قد شكلت التجسيد الفكرى والعلمى لمبادئ التنوير، فإننا سوف تجد أن النسق النظري لباريتو يقف بعيدا عـــن هـــذه الأنســـاق، ويميل إلى قيادة برهنة مخالفة أو مضادة. وإذا كانت الأنســـاق الكلاســـيكية للـــنظرية الاجتماعـــية - ماركس دوركيم، فيبر - قد استمرت مستنده إلى مبادئ التنوير، تحاول التفاعل من خلالها مع الواقع، فإن القضايا النظرية التى قدمها فلفريدو باريتو كانت رفضا لقضايا هذه الأنساق الـــنظرية، واستكمالا لذلك تشكيكا في بعض مبادئ التنوير الفاعلة من خلال العلم الاجتماعي

وإذا كـــان فكـــر التـــنوير قـــد حاول إدراك الظواهر الاجتماعية - باعتـــبارها جـــزءا من ظواهر الكون- بالنظر إلي مقولة السبب والنتيجة - مســـتلهما فى ذلك نموذج العلم الطبيعى المتطور - خلال هذه الفترة- وهى المقولـــة التى تحاول إدراك الأسباب المخلقة للواقعة الاجتماعية أو العوامل المؤثرة عليها من خارجها، كما يحدث في نطاق الظواهر الطبيعية. فإننا نجد أن فلفريدو باريتو يري أن العامل الأساسى المحدد لكل الظواهر الاجتماعية يكمن فى عمق الذات البشرية، راسب فيها يحدد سلوكيات الانسان وتبريراته المنطقية لسلوكياته وأفعاله. قد تكون هذه الرواسب مبادئ ذات طبيعة بيلوجية تدفع الانسان من داخله، أو هى عواطف تشكل طاقة دافعة لسلوكيات الانسان فـــى الواقـــع الاجتماعى، ومحاولته اقناع الآخرين بهده السلوكيات ومنطقها أمامهم. وهو بذلك - على ما نرى- يسبح في التيار المعاكس لفكر التنوير.

وإذا كان عصر التنوير قد رفع شعارات الحرية والأخاء والمساواة، باعتـــبارها القضايا التى تشكل مقدمات دعوة الجماهير للمشاركة فى النظام السياســـى والاجتماعـــى، وهـــى الدعوة التى وجدت تجسيدا لها فى الثورة الفرنســـية التـــى اعتـــبرت مدخلا للمشاركة الجماهيرية فى صياغة القرار السياســـي طالما أنها التي تتحمل معاناة تجسيد هذا القرار. فإننا نجد فلفريدو

باريـــتو يجفـــل من هذه المشاركة الجماهيرية، ويري أن البشر فى المجتمع ينقســـمون إلى صفوة ولا صفوة، الأولى هى التى تصنع التاريخ، بينما تتلقاه الثانية مصنوعا، وليس عليها سوى الخضوع لحركته ومتطلباته. فالتاريخ من وجهـــة نظره نتاج لدورات الصفوات على خريطة الزمن، أما الجماهير فهي بعيدة دائما علي هامش الدائرة أو علي هامش التاريخ.

وإذا كان شعار التقدم والتطور من الشعارات الأساسية التى تميز بها عصر التنوير، وهى الشعارات التى ورثتها كافة الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعـــية. حيـــث النظر إلى المجتمع الانسانى من خلال منظور تطورى يري أن المجتمع الانساني ذاهب أبدا إلى الكمال، وإن كل مرحلة من مراحل الـــتطور ليســـت ســـوى خطـــوة علـــى طريق التقدم نحو الكمال الانسانى والاجتماعي، من هنا فالتطور هنا خطي له بداية وينشد الوصول إلى نهاية. علـــي خـــلاف ذلك نري أن باريتو يؤكد علي دورية التاريخ، فالتاريخ ليس ســـوي دائرة تقود فيه الصفوة المجتمع على محيطه، ليس ثمة كمال انسانى ولكـــن هـــناك انتقال من حالة أو مرحلة إلى أخري، كل مرحلة لها صفوتها التي تطبع نظرتها وأخلاقها علي المجتمع والتاريخ حركة دائرية تشهد علي تعاقب الصفوات.

ويعتـــبر العقـــل من المفاهيم أو الشعارات الأساسية التي أكد عليها عصـــر التنوير. فتحت وطأة التقدم الهائل الذي حققته العلوم الطبيعية، ظهر ايمـــان بقدرة العقل المستند إلى المعرفة العملية على تنظيم المجتمع وقيادته وتجنيـــبه المشكلات المختلفة. بحيث نجد أن مختلف الاتجاهات الفكرية تؤكد على دور العقل، فقد أكد ديكارت على دور الفكر أو العقل، حتى جعله أساسا للتثبت من حقيقية الوجود الانسانى، وكانت الذي رأي أن العقل يدرك واقعه بناء على مقولات الادراك الثلاث التى تشكل جهازه المدرك للواقع، وهيجل هـــو الـــذي أكد على تطور الأفكار باعتبارها القوة الدافعة للتفاعل والتطور الجدلي. ولا تختلف الوضعية عن ذلك، فهي التي أكدت علي أهمية العلم في

تنظيم استقرار المجتمع وتطوره، بل ذهبت أحيانا إلي المطالبة بحكم العلماء للمجتمع علي نحو ما يذهب سان سيمون.

في مقابل ذلك نرى أن باريتو يخالف موقف التنوير المؤكد على دور العقل فى تأكيد استقرار وتطوره المجتمع أو تطوره أو شيوع حالة الفوضى فيه، وذلك بناء على مجموعة الرواسب الشائعة فى الصفوة التى تتولى ضبط تفاعلاته والسيطرة عليه. فالرواسب بدلا من العقل، هي الحاكمة لحركة المجتمع في قلب التاريخ.

وإذا كان الاستقراء هو المنهج الذي أكد عليه التنوير نقلا عن العلوم الطبيعية، بحيث برز اتجاه الاستفادة منه فى نطاق العلوم الاجتماعية. ولما كان الاستقراء يحاول إدراك الحقيقة من خلال تجلياتها ومؤشراتها الخارجية، فإننا نجد أن فلفريدو باريتو يؤكد أن فهم الفعل أو السلوك أو الظاهرة الاجتماعية يستوجب إدراك الرواسب التى تشكل مظاهر الظاهرة تجليات لها ... ومن ثم فعلى العلم الاجتماعى أن يركز على إدراك الرواسب المحددة للواقعة الاجتماعية، لأنها هي التي تكسبها خصائصها. وهو بذلك يشكل بداية تيار فكري كامل، سوف يؤكد دائما علي الإدراك الذاتي للواقعة الاجتماعية، وهو التيار الذي سوف يظل متناميا حتى ينادى بإلغاء التنوير الفكري ومنجزاته على نحو منظروا الفكر النقدي الحديث، كما يتجسد ذلك فى مؤلف تيودور أدورنو، وماكس هوركها يمر في مؤلفهما "جدل التنوير". وسوف نعرض فى هذا الإطار لطبيعة التيارات الفكرية التى شكلت فكر فلفريدو باريتو، ثم نحدد قضايا المنهج والإجراءات المنهجية، وفى النهاية نعرض لتصوره عن البناء الاجتماعي من حيث عناصره، وطبيعة العلاقة بين هذه العناصر.

وإذا كان ما عرضنا له يشكل القاعدة التى مستند إليها هذه المؤلف الذي نقدمه عن فلفريدو باريتو، فإننى أتمنى التوسع مستقبلا فى التعريف بهذا المفكر الذي تميزت إسهاماته بهوية خاصة لها. بحيث يمكن القول أن هناك علي صعيد الفكر العالمي إحياء لأفكار فلفريدو باريتو ويمكن أن نذكر

مـ لا على ذلك الحلقة التى تأسست قبل نهاية القرن العشرين، هدفها الرئيسي عادة قراءة اسهامات فلفريدو باريتو.

بالإضـــافة إلـــى ذلـــك فـــإن هناك مجموعة من القضايا التى نتمنى معالجـــتها فى المستقبل، على سبيل المثال قضية الصفوة وعلاقتها بالمجتمع، كذلـــك العلاقة بين الافتراضات الكامنة والظاهرة فى نظرية فلفريدو باريتو، ضـــافة موقف باريتو من الاشتراكية والرأسمالية، كذلك التطويرات اللاحقة التى تعد إمتدادا لأفكار وإسهامات فلفريدو باريتو.

وإننى لأتمنى بهذا الجهد أن أكون قد قدمت تعريفا بهذا العالم، الذي ـد إسهاماته المتميزة في علم الاجتماع. والله الموفق أولا وأخيرا

المؤلف

د/ علي ليلة

الفصل الأول

فلفريدو باريتو

الجذور الفكرية والسياق الإجتماعي

تمهيد:

إلـــي حـــد كبير شكل تفكير باريتو جدلا مع فكر التنوير، وهو الفكر الذي سيطر على المرحلة التاريخية التي انتهت بقيام الثورة الفرنسية، ونشأة الـــنظرية السوسيولوجية، أي قيام التفكير العلمي المنظم بشأن المجتمع. وإذا كانـــت أفكار التنوير الرئيسية قد تمثلت في الإيمان بالعقل، والإيمان بالتقدم، لأن مـــا هو أكثر اكتمالا ما زال في قلب المستقبل، هذا إلي جانب النظر إلى التفكـــير العلمـــي الطبيعـــي باعتباره الفكر العلمي الذي يجب ان يحتذي في التفكير والعمل، لحساب التخلي عن الميتافيزيقيا فكرا ومنهجا.

ومـــنذ البداية نجد أن باريتو يتناقض مع أفكار التنيور ويرفض تأكيد التـــنوير علـــى العقل كمدخل لفهم المجتمع، باعتبار أن العقل ليس إلا عاملا غير ملائم لفهم التاريخ[1]. وإذا كان ثمة إيمان بعقلانية الانسان وكماله، وهي القضـــية التي ركز عليها فكر التنوير فإننا نجد أن باريتو يري الانسان غير عقلانى أساسا، وأن التاريخ لا يضيف إليه تقدما. فهو كائن لا يسيره العقل، وإنمـــا تســـيره وتدفعـــه الرواسب الكامنة في أعماقه[2].وإذا كانت الأنساق الـــنظرية التـــى شـــهدتها مرحلة التنوير – وهي المرحلة التي عايشت ميلاد الـــنظرية الاجتماعـــية – قـــد أكدت على مبدأ التقدم أو التطور نحو الاكمال الانسانى، فإننا نجد أن باريتو على خلاف التنوير ينظر إلى التاريخ باعتباره يسير دوريا، ومن ثم فقد قدم نظريته عن الصفوة التي تناوبت عناصرها في السيطرة على مراكز القوة والسلطة في المجتمع، دون أن يكون لهذا التناوب أو التغـــير الناتج عنه أي تأثير على حالة البشر الذين يشاركون في عضوية هـــذا المجـــتمع، فهـــو الـــذي قال أكثر من مرة أن المضمون واحدا دائما، والأشكال هي التي تتغير فقط[3].

وفـــى محاولـــة رصـــد الاتجاهـــات النظرية التى عايشها باريتو، والأحـــداث التـــى تفاعل معها، باعتبارها العناصر التى أسهمت فى تشكيل أفكـــاره، فإنـــنا سوف نجد منذ البداية أن حياته لم تسر وتيرة واحدة، ولكنها خضـــعت لـــتحولات جذرية انعكست فى التحولات التى طرأت على مواقفه الفكرية والأيديولوجية إضافة إلي حالة عدم الاستقرار التي خضعت لها حياته الأكاديمية.

ويعتـــبر العلـــم الطبيعى أول الاتجاهات الفكرية التى كانت موضع تركيزه واهتمامه، حيث شكل النموذج الفكري الذي ينبغى تمثله لفهم الظواهر الاجتماعـــية. وتمـــثل الوضعية الاجتماعية- وبخاصة الفرنسية- كما أسسها ســـان ســـيمون وأوجست كونت ومن تأثر بهما مثل جيتانو موسكا ثانى هذه التـــيارات الفكرية. وقد كانت الماركسية هى التيار الفكري الثالث الذي طرح حلـــولا جزئـــية لتساؤلات أرهقت العقل الأوربى فى هذه المرحلة. هذا إلى جانـــب كثير من الأفكار التى كان لها تأثيرها عليه، وهى الأفكار التى تنتمى إلى الفلسفة المثالية خاصة ماكس فيبر كتعبير سوسيولوجي عن هذه الفلسفة، ثم الدارونية الاجتماعية كما قدمها هربرت سبنسر أحد روادها البارزين. هذا بخلاف الأحداث الواقعية التى فرضت طابعا معينا على تفكير باريتو، لكونها علـــى الأقـــل هى التي فرضت عليه التفكير فى نطاق مجالات معينة، وفيما يتعلق بقضايا محددة، وهو ما سوف نعرض له في الصفحات التالية.

أولا: فلفريدو باريتو، الأنسان والسياق(*)

مـــثلما تجـــاهل فلفريدو باريتو رواد علم الاجتماع الذين أخذ عنهم وتدرب على أفكارهم، لم تردده كثيرا صفحات علم الاجتماع المعاصر. ولعل ذلـــك يـــرجع لأسباب عديدة، منها انه برغم اكتمال مؤلفه (مقدمة عامة لعلم

(*) ولـــد فلفريدو باريتو فى باريس ١٨٤٨ من أبوين أيطاليين، وقد توفى فى سنة ١٩٢٣ من ٧٥ عاما. وقد تدرج في المناصب حتى وصل إلي أستاذ لعلم الاقتصاد والاجتماع في جامعة لوزان Lausanne بسويسرا.

الاجتماع General Treatise On Sociology) فى سنة ١٩١٢، فقد ظهر فـــى ١٩١٦ فقط أثناء الحرب العالمية الأولى، ولأنه قد نشر بالإنجليزية فقد كـــان منطقـــيا أن يلقى استقبالا ملائما. غير أن ذلك لم يحدث بسبب رفض مدرسة دوركيم – التى كانت لها سطوتها فى فرنسا- لمدخل باريتو المختلف فى علم الاجتماع. ولعل قلة قراءة علم الاجتماع فى ايطاليا ابان هذه المرحلة كـــان أحد هذه الأسباب أيضا(١). غير أن سببا رئيسيا ثالثا يعتبر مسئولا عن عـــدم ذيوع أفكار باريتو أثناء هذه المرحلة، هذا السبب يتمثل فى أن باريتو أســس بـــناءه النظرى حسب متغيرات لم يعمل بها منظروا عصره. فبينما تـــناول معاصــروه (ماركس، دوركيم، فيبر) المتغيرات التى تقع فى إطار المشتقات- وهو نطاق المتغيرات التابعة من وجهة نظر باريتو- اتفاقا منهم وروح التـــنوير، نجـــد أن باريـــتو قد أنجز تحليله حسب متغيرات من نوع مختلف. هذه المتغيرات نجد أصولها فى العواطف الداخلية لبناء الانسان، أي الرواســـب الأساســـية الكامـــنة فـــى أعماقـــه باعتبارها المتغيرات المستقلة والمؤسسة للتفاعل الانساني، والتى ينبغى تحديدها إذا رغبنا فى تحديد ملامح هـــذا التفاعل. إذا فبينما عملت النظريات الاجتماعية بمتغيرات ظاهرة العيان لها مؤشراتها الواضحة كالاقتصاد أو السكان أو الثقافة والقيم، نجد أن باريتو يتراجع عن روح التنوير، ومن ثم فقد حاول ممارسة تحليله بالنظر إلى إطار نظـــري يعمل بمتغيرات من مستوى أعمق من متغيرات التنوير، أو لنقل بما هـــو كائن وكامن فى عمق الطبيعة البشرية، ومن ثم فليس صادقا ذلك القول الـــذي يذهب إليه ارفنج زايتلن حينما يعتبر تنظير باريتو ليس إلا حوارا مع أفكـــار الشـــبح الماركسى. ذلك أن باريتو قد مارس تحليله على أرضية جد مختلفة، وبمتغيرات لم تستطع النظرية الاجتماعية استيعابها فى هذه المرحلة. ذلك يفسر تجاهل باريتو لنظريات ماركس، ودوركيم، وفيبر. فقد كانت- من وجهة نظره- تنتمي إلي نطاق آخر لم يرض لنفسه العمل في إطاره.

وتكشـــف دراســـة الموقـــف النظرى لفلفريدوة باريتو عن تعرضه لمؤثـــرات عديـــدة. أول هذه المؤثرات تلك المتصلة اتصالا مباشرا بحياته.

. د صب على تفكيره ان يتميز بطابع خص حيث تميز حياته بدرجة
.. من التحولات وعدم الاستقرار، فمثلا انتقل أبوه من ايطاليا إلى فرنسا
فـى الثلاثينـيات من القرن الثامن عشر وظل بها حتى عاد إلى ايطاليا فى ١٨٥٥ [٢]. ومما لا شك فيه أن ذلك كان له وطأة وتأثيرا على الطفل فلفريدو .. من حيث تغير القيم المجتعية التي عايشها أو النظام التعليمي الذي تعلم فى اطاره.

ويشكل التعليم الأكاديمى الذي تلقاه باريتو التحول الثانى الذي تيمزت ه حـياته. فقـد درس الهندسـة فـى كلـية الهندسـة بتورين Turin Polytechinical Scoo. وتخصص كأبيه فى الهندسة المدنية، حيث أنفق عامـين كاملين فى دراسة الرياضة، وهو أسلوب التفكير الذي كان له تأثيره .. ى تفكيره المستقبلى. وقد اختتم باريتو هذه المرحلة بدراسة عن "المبادئ .سية لتوازن الأجسام الصلبة" حيث نجده فى مرحلة تالية ينقل هذه الرؤية .لى علم الاقتصاد والاجتماع. غير أن التحول الرئيسى لحياته حدث بعد وفاة ـبيه فى ١٨٨٢. فتحت تأثير ذلك غير أسلوب حياته كلية، ومن بينها تحوله نـى الدراسة الجادة للاقتصاد[٣]. أما التحول الأخير الذي حدث له فى نهاية حياته العلمية فهو تحوله إلى دراسة علم الاجتماع، حيث تركزت محاضراته ـى أواخـر أيـام حياته في نطاق علم الاجتماع السياسي وتاريخ المذاهب .اجتماعية والاقتصادية[٤].

غـير أن هناك تحولا رئيسيا له فى حياته، وهو التحول الذي يتمثل . ى انـتقاله من الحياة العصامية النشطة إلى حياة أرستقراطية مترفة. فقد صـبح ثـريا نتيجة لوصية بثروة كبيرة حصل عليها بعد وفاة أحد أعمامه. . مـن ثم فقد بدأ يعيش حياة لم يكن يسمح بها مرتبه السابق إذ بنى منزلا فى .سى Celigny القريبة من لوزان Lausanne ثم قاد بعد ثرائه حياة مترفه . منغمسـة فى اللذات، يشرب أفضل أنواع النبيذ والخمور. وبعد عدة أعوام .ـن هـذه الوصية التي آلت إليه نشر مؤلفه "النظم الاشتراكية Systems

Socialists"، حيـث قـدم تحلـيلا ونقدا مفصلا للمذاهب الاشتراكية ولكل المذاهب التي تبيح تدخل الدولة(٥).

ويتمـثل الـتحول الـرابع الذي طرأ على حياته، في مجموعة من التحولات الأيديولوجية التى طرأت على موقفه الاجتماعى. إذ نجده فى بداية حياته- اتباعا لأبيه- يلتحق بالصالونات الأرستقراطية، حيث اختلط بالأوساط البرجوازية العليا، وفي هذه المرحلة كان جمهوريا ديموقراطيا غيورا، مؤكدا على النزعة السلامية(٦). غير أننا نجده فى مرحلة تاريخية تالية يشن هجوما على النظريات- الليبرالية الديمقراطية والاشتراكية الماركسية خاصة - (٧). بيـنما فـي مرحلة تالية نجده ينقلب من اليسار الليبرالية، فقد كان في بداية حياته بلوزان يعتبر نفسه ليبراليا يساريا، إذ نجده فى هذه الفترة يوفر المأوى للاجئين اليساريين الذين فروا من ايطاليا بعد اضراب ميلانو في ١٨٩٨. غير أنـنا نجد أن آراؤه قد تغيرت بصورة جذرية وحادة، فقد تخلى عن أمله في إعـادة بناء الجوانب الاقتصادية لايطاليا على الطريقة الليبرالية، وتحول ذد أي شـكل من أشكال الفكر الديمقراطي. حيث ميزت هذه الحالة من الكراهية المرضـية لأفكـار اليسار كل كتاباته التالية(٨). ويتضح تحوله ضد النزعة الانسـانية حينما نذكر ما كتبه في شبابه وهو شاب فى فلورنسا كمدافع نشط عن النزعة الانسانية والسلامية "تعتبر الحرب والسلام المسلح رفاهية مكلفة تتمـتع بهـا الطـبقة الحاكمـة على حساب الأمة" ويرتبط بذلك أنه في هذه المـرحلة كان معاديا للاستعمار. حيث أكد أن تونكين Tonkin تكلف فرنسا كثيرا. ولا تقدم تونس أية فائدة لايطاليا سوى بعض الوظائف الإدارية لأبناء الـبرجوازية. غـير أننا نجده في فترة تالية ولسبب غير واضح يتحول عن موقفـه السابق ليكشف عن كراهية حادة وإدانة للنزعة الانسانية، التى ليست سـوي عاطفـة الضـعيف فى إطار الطبقة المحكومة أو عاطفة تشهد على تدهور الصفوة الحاكمة. ويؤكد بوسكيه Bousquet أنه رغم ذلك فقد تحول فـي أيامـه الأخيرة إلى الحديث عن شرور الحرب، غير أن أراؤه في هذه المرحلة لا تتلاءم كثيرا مع امتداحه للقوة واستخدامها في الصراع الطبقي أو

بصـــراعات التـــي قد تظهر بين الأمم(٩). وفي إطار ذلك فإنه بامكاننا أن حصل إلى استناد رئيسي يذهب إلى أن باريتو كان ليبراليا انسانيا ديموقراطيا فـــي فترة حياته الأولى، غير أنه حينما امتلك الثروة وعاش الحياة المريحة، بـــدأ يمارس انعكاسا لهذه المرحلة، حياة لا انسانية، يؤكد فيها علي الصراع والقوة والرواسب ذات الفاعلية في حركات التاريخ والمجتمع.

ولعلـــه من الضروري- لفهم حياة باريتو وتفكيره- أن نتعرف على القـــراءات العلمـــية التـــي تعرض لها. وفي هذا الصدد نجد أن هناك ثلاثة مجموعات فكرية كانت لها وطأتها علي تفكيره.

الأولـــي: مجموعـــة قراءات الفكر الاغريقي والروماني، حيث كان باريـــتو علـــى معرفة باللغة اليونانية واللاتينية وكانت لديه عاطفة قوية نحو الـــتراث والـــتاريخ الأغريقي والروماني. وقد أطلع على هذه المجموعة في فترة شبابه عند بداية اهتمامه بالتاريخ والمجتمع. ومن ثم نجده يري أن علم الاجـــتماع بالنسبة له يعتبر دراسة لأوربا القديمة بقدر ما هو دراسة للمجتمع الأوربـــي المعاصـــر، ولعل قراءاته للاساطير اليونانية القديمة شكلت أساسا لتصـــوراته عـــن الرواســـب وعلاقتها بالمشتقات، التي تتسم بالطبيعة غير العلمية.

الثانـــية: وهي المجموعة التي تعرض لها باريتو بالبحث والدراسة. وتتمـــثل هـــذه المجموعـــة في مجموعة النماذج النظرية التي طرحها فكر التـــنوير. حيث هاجم باريتو فكر التنوير أيا كانت الأشكال التي أتخذها. فقد ذهـــب باريتو- مناقضا في ذلك معظم مفكري التنوير- إلى القول بأن العقل يعتـــبر وســـيلة غير ملائمة، وربما غير صالحة لفهم المجتمع والتاريخ[١٠]. وبينما كان فكر التنوير يؤكد على العقلانية كمعيار رئيسي للفعل والسلوك، نجـــد أن باريـــتو يؤكد أن أفعالنا غير منطقية وأننا نطرح تبريرات لها في صـــورة نظـــريات أو أيديولوجيات. وإذا كان مفكري التنوير قد أكدوا على الـــنظريات والمـــبادئ، فقد أكد باريتو على الرواسب باعتبارها طبقة قريبة للغاية من الغرائز في تشكيل السلوك الإنساني والتأثير عليه.

الثالـــثة: وتتمثل فى المؤثرات الفعلية من داخل علم الاجتماع كنظام عقلـــى، وهو التأثير الذي لم يسلم به باريتو أبدا. وربما لأنه كما ذهب ارفنج زايتلـــن قـــد شعر أنه قد فاق كل السابقين عليه بما فيهم أرسطو Aristotle وميكيافيللـــى Macchiavelle ومـــاركس وداروين وآخرين. إذ نجده وهو يكمل دراسته "مقدمة فى علم الاجتماع" لا يقتبس من أي شخص آخر مؤكدا أن ذلك لا أهمية له فى الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية. وهو الأمر الذي دفـــع محرره ومترجمة أرثر لفنجستون Arthur Livingston إلى القول، بأنه فى إطار علم ضم ملايين الكلمات، لم يذكر باريتو المفكرين العظام الذين أخذ عنهم، فهو لم يذكر تأثره العام بكونت Comte ونظرية المشتقات لبنتام Bentham "حيـــث نقل باريتو بعض قضاياهم حرفيا إضاف إلى نقل نظرية الـــدورة الطبقـــية لجيتانوموسكا Gaetamo Mosca ونظرية الرواسب عن جـــيمس فريـــزر Frazer وآخريـــن غـــيرهم، هذا بالإضافة إلى كثير من التفصيلات التي أخذها عن هيجل ووليم جيمس وآخرين كثيرين[١١].

وتشكل الحياة الأكاديمية والجامعية التي عاشها البعد الرابع الذي كان لـــه تأثـــيره علـــى طبيعة تفكيره. حيث نجده قد عاش حياة أكاديمية اتسمت نهايتها بالمرارة التي كان لها تأثيرها على تفكيره ومزاجه. فقد تعرف باريتو على ليون والراس Leon Walras أستاذ الاقتصاد السياسى بجامعة لوزان. وابـــتداء من هذه اللحظة بدأ باريتو فى كتابه مقالات فى النظرية الاقتصادية إلى عدد من الصحف فى كل من ايطاليا وفرنسا، بحيث عكست هذه المقالات وجهـــة نظـــر والـــراس. وفـــى عـــام ١٨٩١ قدمه صديقه مافو بانتاليونى Pantaleoni وهـــو ليبرالى اقتصادي إلى والراس بقوله "أنه مهندس مثلك، غـــير أنـــه اقتصـــادي يختلف عنك، وهو يرغب فى أن يكون مثلك إذا أنت ســـاعدته على ذلك"[١٢]. ثم مرض والراس فدفعه صديقه إلى ترشيح باريتو خليفة له، ومن ثم عين باريتو فى ١٨٩٣ كأستاذ مرموق للاقتصاد السياسي، وكان ذلك في منتصف الأربعينات.

وفـــي اعقـــاب التحاقه بجامعة لوزان بدأ يشكو من الظروف السائدة هناك. فقد كتب في رسالة له "توجد هنا مكتبة أحدث كتاب للاقتصاد السياسي بها هو كتاب جون سيتوارت مل"، هذا إلى جانب أن اختلافه ورفضه لآراء والــراس عــن التقدم والتطور جعله يختلف مع أفكار كانت تشكل مناخ هذه الفترة، وهو ما سبب المتاعب له. إضافة إلى أنه لما كان الاقتصاد هو العلم الأساســـي فـــي كلية الحقوق، فإن باريتو وجد صعوبة كبيرة حين محاولته استـــبدال ودعم البحوث الاقتصادية بتطوير نظرية إجتماعية. هذا إلى جانب انـــه وجد نفسه وحيدا في كلية تدرس القانون أساسا، بل أن محاولته لفرض تعليم العلوم الاجتماعية وجدت مقاومة من زملائه، ووصل الأمر إلى أنه قد فشل حتى بعد أن أصبح عميدا في أن يجد مكانا لاثنين من أصدقائه في علم الاجـــتماع الأجرامـــي، وقـــانون العقوبات، هذا إلى جانب أنه قد قابل عدة صـــعوبات فـــي التدريس، فقد كان يلقي محاضرات على المبتدئين، جعل نه ببغاء يحاضـــر أســـلافا داروينيين. وقد دفعه عدم نجاحه في التدريس إلى التخفف مـــن أعباء التدريس حتى أصبح يلقي محاضرة لساعة واحدة كل أســـبوع في الاجتماع السياسي وتاريخ المذاهب الاقتصادية والاجتماعية. ثم بلغ به الأمر إلى أنه أصبح يحاضر ثلاثة شهور فقط في السنة. حتى وصل في النهاية إلى ترك التعليم الجامعي كلية، حيث استراح في فيلته يحيا (ككائن كسول في صدفيته) كما عبر هو عن ذلك(١٣).

أمـــا الـــبعد الأخـــير الذي كان له تأثيره على حياته فيتمثل في حالة العـــزلة التـــي تعرض لها باريتو في نهاية حياته. ففي أعقاب عام ١٩٠٩، انســـحب مـــن كل الروابط التي كانت له مع رفاقه ومعارفه. حقيقة أنه كان هناك بعض الزملاء من الجامعة الذين داموا على زيارته، أو بعض المفكرين مـــن جامعات أخرى مثل روبرت ميشلز، غير أن الدائرة ظلت تنكمش، لأنه أصـــبح مـــن الصعب عليهم أن يتحملوا هياجه وانفجاراته العصبية، وحتى اصدقاءه أصبحوا موضوعا لهجومه. وحينما كان يحاول أي من أصدقائه أن ينـــبهه بلطـــف إلي عدم لياقة ذلك كان يصرخ (من الواضح أن التجاهل هو

ســلاح الأقلــية، أما معظم البشر الذين يضمون البلهاء والأوغاد، فإن على المــرء أن يستخدم القوة لكى يبقهم فى حالة من النظام، وفى فترات الانتقال حيث لا يكون ذلك ممكنا، فإن ما يبقى لنا هو أن نضحك أو نستهين بالبلهاء والأوغــاد)[١٤]. وقــد انتهى به الأمر فى أواخر أيامه إلى عزلته التامة عن الحياة الأكاديمية، حيث بدأ ينكر أي قيمة علمية لآراء أي شخص لا يتفق مع أفكاره. وفى مقابل ذلك فإنه حكم علي هؤلاء الذين يتفقون معه حول المبادئ الأساسية مثل روبرت ميشلز Robert Michels وجورج سوريل George Sorel بأنهم يعملون بروح علمية حقيقية.

ويمكــن القول بأن هذه الأبعاد ذات الطابع الشخصى كان لها- إلى جانــب الأفكــار والاتجاهات النظرية التى سادت عصره- أثرها فى تشكيل موقفــه النظرى. ويمكن القول بأن حالة عدم الاستقرار التى عاشها كان لها تأثيرها الواضح على طبيعة الشكل الذي اتخذته أفكاره، كما يؤكد ذلك شهادة قرائه الذين واجهوا صعوبات بالغة فى الاطلاع علي مؤلفاته وبخاصة مؤلفه الرئيسي "مقدمة في علم الاجتماع العام".

ثانيا: فلفريدو باريتو والشوق إلي نموذج العلم الطبيعي.

فيما يتعلق بالموقف من العلم الطبيعى نجد أن تالكوت بارسونز يؤكد أن باريتو- كما هو معروف- قد تدرب فى إطار العلم الطبيعى وذلك بمعهد الهندسة بمدينة تورين، ثم عمل مهندسا لعدة سنوات، ومن هذه اللحظة نجده لــم يغفــل اهــتمامه بالرياضــة والعلوم الطبيعية، بحيث يفرض ذلك علينا اعتبارها عنصرا أساسيا فى تفكيره ونموذجا لتفكيره الاجتماعى فيما بعد[١٨]. وقــد اتضــح التزام باريتو بالنزعة العلمية فى كتابه "المقدمة"، حيث عرض لكثــير من الملاحظات الناقدة لما يسمى بالنزعة العلمية الزائفة عند كل من كونــت وسبنسر. كما نجد أيضا اشارات ساخرة للديانات العلمانية عن التقدم والإنسانية والديمقراطية. ويري باريتو أن ما يجنبنا الوقوع فى هذه الفجوات غــير العلمية، هو أن يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبي المنطقي الذي

ـ ـمد أساســا علـــى الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء ـاسـسية كمـا حددها دون ستيورات مل. فالعالم التجريبى فى رأي باريتو ـستكون من ظواهر وعلاقات من الممكن ادراكها بالحواس، وعادة ما يتيسر احصاعها للقياس(١٩).

ويعنـــى الالتزام بمنهج العلوم الطبيعية أيضا، ألا تكون هناك برهنة عقلية فقط، وألا تكون هناك تأملات Speculations، وأيضا لا تكون هناك محاولة لفرض رؤية أخلاقية فيما يتعلق ببعض القضايا الواقعية. إذ لا ينبغى ان نعترف بشئ يتجاوز الحقائق أو لا يصف اطراداتها أو خصائصها وهى الممارســات التي يمكن أن تشكل عناصر فى نظرية علم الاجتماع المنطقى لتجريبـــى. وبعبارة أخرى، فنحن لا ينبغى أن نسمح بتدخل عنصر أو مبدأ مســبق فى نطقا علم الاجتماع. فقضايا علم الاجتماع وافتراضاته ينبغى ألا يكون أكثر من وصف من وصف الحقائق واطراداتها. وعلى هذا النحو فهى ليست مطلقة ولكنها نسبية، معرضة للتغير طالما أظهرت حقائق جديدة عدم ـقــتها وكفاءتها. ومن ثم فينبغي اخراج مقولات مثل الضرورة Necessity والحتمية والحقيقة المطلقة من نطاق العلم. فقضايا هذا العالم ينبغى أن تكون احتمالية بدرجة أكثر أو أقل. إذ ينبغى أن يستند العلم إلى النظرية الاحتمالية، كمـا ينبغـــى قياس صدق الحقيقة بحسب ذلك. كذلك لا ينبغى أن يدخل فى مجال هذا العلم كل مالا يخضع للتجريب أو الملاحظة. ذلك أن الموضوعات التى لا تخضع للتجريب أو الملاحظة لا يمكن أن يقول العلم شيئا بشأنها إذا لا يمكــن أن يشــكل مبدأ أو قيمة مطلقة أو تقويما أخلاقيا يتجاوز ممكنات الملاحظــة والصــدق التجريبـــي عنصــرا فـــي علم الاجتمـــاع التجريبي المنطقـــي(٢٠).

غـــير انـــنا إذا اتفقـــنا على تأكيده على العلم الطبيعى كنموذج للعلم الاجتماعـــى، فانـــه يستتبع ذلك التأكيد على مجموعة من الحقائق الرئيسية. وتتمـــثل الحقيقة الأولى فى أن الباحث لا ينبغى أن يهتم سوى بوصف العالم أو تحليله أو تفسيره، أي أن يقف منه موقفا موضوعيا. وفي هذا الصدد يؤكد

باريــتو أن هدفه الرئيسي- الذي يركز عليه المرة تلو الأخري- هو الحقيقة العلمــية، التــي يمكــن إدراكها فى المجال الاجتماعى إذا نحن طبقنا مناهج العلــوم الطبيعية. حيث نلاحظ في كل مؤلفاته تأكيدا على أنه لا يهتم بتغيير العــالم أو تحســينه، وهو أيضا لا يهتم بتوفير توجيه نظري يقود تفاعلاته الواقعــية، ولكــنه يسعى لهدف رئيسي يتمثل فى دراسة إطرادات الظواهر الواقعــية والحالــية، أي المعاشــة فــي الحاضر للكشف عن القوانين التي تحكمهــا(٢١).

أما المسألة الثانية التي تنبثق عن هذا الموقف المتمسك بنموذج العلم الطبيعــى، فتتمثل فى الحيادية، وهو هنا يدرك الحيادية بمعنى خاص يتعلق بــه. وتتمــثل فى ضرورة الفصل بين صدق الفكرة ونفعها. إذ يؤكد أن نفع الفكــرة وصــدقها لا يتطابقان في المجال الاجتماعي، فكلاهما كأمر واقعي ينفصــل عن الآخر. وبصورة مستمرة يذكر باريتو قارئه، أنه حينما يبرهن علــى عبــث فكرة معينة، فإن ذلك لا يعنى أنها ضارة بالنسبة لأي شخص. وحينما يبرهن بأن فكرة معينة نافعة فإن علي القارئ ألا يفترض أنها صادقة تجريبــيا. فمن الواضح أن هناك أفكار كثيرة شائعة بين البشر، يعرف البشر أنها زائفة، وأن صدقها النسبي مازال مجهولا(٢٢).

أمــا المســألة الثالــثة فتــتعلق بتأكيده على القانون العلمي بصورة متطرفة. وفي هذا الصدد نجده يؤكد أن عنصر الضرورة فى القانون العلمي يعتبر عنصرا جوهريا فى بنائه المنطقى. وعلى هذا النحو فالقانون العلمى لا اســتثناء له. غــير أن هــذه الضرورة المنطقية، والتى قد نسميها بالحتمية المنطقــية Logical Determinsism (٢٣)، ينبغــى أن لا تنســحب علــى الظواهــر الواقعية. ذلك أن النسق المغلق منطقيا والذي يتعلق ببناء النظرية العلمــية لا ينبغــى أن يصبح نسقا امبيريقيا مغلقا بصورة تعسفية أو ارادية. فعلــى العكس من ذلك يؤدي تطبيق النظرية امبيريقيا إلي كم من الاحتمالات وليس إلي الضرورات أو الحتميات(٢٤).

خلاصة القول أننا نلمح تأثير منهجية العلوم الطبيعية على تفكير باريتو من زاويتين، الزاوية الأولى وهى بطبيعتها زاوية عامة، حيث نجد أن بعض جوانب الموقف المنهجى لباريتو قد أخذه عن منهج العلوم الطبية كما ناقشنا ذلك، وكما سوف يتضح فى الفقرة التى سوف نقدمها عن المنهج خاصة فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية الحديثة التى تتسم بالدقة، من حيث بنائها المنهجى(٢٥). أما الزاوية الثانية فنتمثل فى أنه قد نقل إلى بنائه النظرى مجموعة من المفاهيم الأساسية التى كانت تلعب دورا أساسيا فى العلوم الطبيعية. وفى هذا الصدد يؤكد لويس كوزر L. Coser أن فكرتى باريتو عن النسق System والتوازن Equilibrium، قد أخذهما عن العلوم الطبيعية(٢٦).

ثالثا: باريتو والحوار مع الوضعية الاجتماعية.

وتعتبر الوضعية الاجتماعية كما طرحها سان سيون وأوجست كونت خلال هذه الفترة الرافد الثانى الذي كان لباريتو موقفا واضحا معه. ومنذ البداية نجد أن باريتو كان لديه طموحا لخلق علاقة بين النظرية الاجتماعية الميكيافيلية، وهى التى تنتمى إلى الفكر الايطالى من ناحية، وبين الفكر الوضعى بأشكاله المتعددة، سواء كان السان سيمونية أو الوضعية الكونتية، أو حتى تلك المتصلة بالدارونية الاجتماعية من ناحية أخرى(٢٧). وحسبما تذهب المراجع التاريخية، هناك تأكيد لقراءته لكونت، حيث لم يكن لديه شئ سوى احتقار النسق النظري العام لكونت، إذ أعتقد باريتو أن علم اجتماع كونت ليس إلا نوعا من الدوجماطيقا التى تماثل إلي حد كبير مؤلف بوسية Bosseut دروس فى التاريخ العام Discoures On Unviersal History، أو هو حالة من ديانتين مختلفتين، ولكنه يتصل بطريقة ما بالدين. ويؤكد باريتو أنه قد صدم بسبب اصرار كونت على أن العواطف وليست الأفكار هى المسئولة عن التماسك الاجتماعى. وهو فى ذلك يستند إلى اقتباس عن كونت يؤكد علي فكرة السيطرة الشاملة للعواطف. حيث استنتج باريتو أنه إذا

كـــان كونت قد قنع بأن يكون عالما، فإنه قد كان عليه أن يكتب مؤلفا ممتازا حول قيمة الديانات، حينئذ كان من الممكن أن يعلمنا أشياء كثيرة(٢٨). ثم نجده يســـخر مـــن كونت باعتباره قد أصبح نبى الديانات الجديدة فبدلا من دراسة آثـــار الديانات التاريخية والمعاصرة نجده قد رغب فى خلق ديانة جديدة... ومـــن ثـــم فقـــد فرض علينا مثالا آخر للضرر الذي وقع فى حق العلم(٢٩). وبـــرغم ذلك – حسبما يذهب كوزر– فإننا نجد أن باريتو قد تعلم كثيرا من كـــتاب (الـــنظم) لكونت برغم عداوته الشديدة له فيما يتعلق بنبوءات كونت الخاصـــة بديانـــة الانسانية أو بالنسبة للاعتقاد المتفائل فى التأكيد علي قوة الأفكار كما يظهر خلال مولفه (دروس في الفلسفة الوضعية).

غـــير انـــنا نجد أن موقف باريتو من سان سيمون يتميز بكونه أكثر ســـوءا، إذ نجـــده ينظر إلي السان سيمونية بنوع من الازدراء معتبرا سان ســـيمون مهرجا Buffoon يكسو تصوراته الدينية والأخلاقية بمظهر علمى خـــادع. غير أن الإشارة إلى سان سيمون على هذا النحو مسألة تثير الريبة، خاصة إذا عرفنا أن فكرة دورة الصفوة مأخوذة عنه. وقد تألم جيتانو موسكا Gaetano Mosca– وهو أحد منافسى باريتو– لذلك، حينما أشار إلى سان سيمون باعتباره رائدا مبرزا لنظرياته، وهو الاعتراف الذي لم نجد نظير له عـــند باريـــتو. وتكشف المقارنة عن وجود تشابه كبير بين نظريات باريتو، ونظـــريات هذا المفكر الفرنسى الذي أكد أن البشر يولدون وهم متباينون من حيـــث ملكاتهم. وأنه نتيجة لذلك ينبغى تنظيم المجتمع تنظيما متدرجا، بحيث يتولـــى الأمـــر فـــيه هؤلاء ذوى القدرات العالية. ويعتبر تأكيد باريتو على الفـــرص الكاملة للحراك الاجتماعى، والمراكز المفتوحة أمام الموهوبين من القضايا التى تتماثل إلى حد كبير مع عبارة سان سيمون التى قالها لحوارييه المأثوريـــن لديـــه، والتى أكد فيها أنه جاهد طيلة حياته بهدف (توفير أفضل فرصة ممكنة لكل أعضاء المجتمع من أجل تطوير ملكاتهم).

والحـــق أن اغفـــال باريتو للأفكار التى جاءت إليه من سان سيمون كانت خاصية عامة في سلوكه الفكري. إذ نادرا ما نجده يقر بفضل السابقين

.. الذين قد أخذ عنهم بعض أفكاره، وهو الأمر الذي دفع آرثر لفنجسون، . و المحرر الأمريكى المعجب بأفكاره إلى القول (فى مؤلف يحتوي على ملايين الكلمات والهوامش الكثيرة)، والذي يحتوي على إشارات كثيرة مفكرين فى الماضى والحاضر، فإننا لا نعثر إلا على بضعة مئات قليلة من الكلمات التى تصف دين باريتو خاصة لكونت فيما يتعلق بمنهجه العام، أو فيما يتعلق بالمشتقات التى أخذها عن بنثام (والذي نقل باريتو بعض قاضاياها حرفيا) ونظريته عن دورة الصفوة التى أخذ بعض أفكارها عن جيتانو موسكا، ونظرية الرواسب لفريزر. هذا إلي جانب عدم تحديده لما يدين به فيما يتعلق ببعض القضايا والأفكار لهيجل Hegel، ووليام جيمس William James، وآخرين كثيرين[٣٠].

يبقى بعد ذلك أن نوضح موقفه من جيتانو موسكا، باعتباره المناظر الفكرى له، والذي طرح نفس الأفكار تقريبا. والحق أن عدم اعتراف باريتو بتأثير بعض المفكرين عليه فيما يتعلق ببعض الأفكار كان أوضح ما يكون بخصوص موقفه من جيتانو موسكا. فما زال هناك جدال بين مشايعى كل من باريتو وموسكا حول ادعاءاتهما المتبادلة فيما يتعلق بنسبة بعض الأفكار- خاصة فيما يتعلق بنظرية الصفوة- لأي منهما. وبرغم أنه ليست هناك حاجة لأي شخص خارج هذا الحوار لإصدار أحكام محددة بهذا الصدد، فما لا جدال فيه أن موسكا قد سبق باريتو لسنوات كثيرة فى صياغة الخطوط العامة لنظرية الصفوة، هذا برغم اختلافهما الواضح حول بعض القضايا والاعتبارات الأخرى.

فقبل أن يكتب باريتو شيئا حول هذا الموضوع فى ١٨٨٤ حدد موسكا- فى كتابه (الطبقة الحاكمة The Ruling Class) أن الطبقة الحاكمة باعتبارها تتكون من هؤلاء الذين يمتلكون زمام القوة العامة ويمارسونها، وهم عادة ما يكونوا قلة تخضع لهم طبقة كبيرة من الأشخاص الذين لا يشاركون بأي معنى فى الحكومة ولكنهم يخضعون فقط لهذه الفئة القليلة، ويسمي الطبقة الكبيرة الخاضعة بالطبقة المحكومة[٣١]. وقد كان عمر موسكا

حيـــنذ خمسة وعشرون عاما فقط حينما قدم فكرته عن الطبقة الحاكمة الذي ظـــل يطورها بقية حياته. وفى هذا الصدد سلم بتأثره بسان سيمون الذي قال (أن القوة فى كل المجتمعات المنظمة تنقسم إلى مجموعتين. الأولى تتحكم فى القـــوة الفعلـــية والأخلاقـــية، أما المجموعة الثانية فتتحكم فى القوى المادية للمجتمع. وكلا من هذه القوى أو السلطات تمارسها سلطات منظمة تشكل فى مجموعهـــا الطـــبقة الحاكمـــة)[٣٢]. وباعتبار أنه كان دقيقا فى تحديد مصدر الهامـــه، نجد أن موسكا كان غاضبا للغاية حينما وجد أن باريتو قد استولى علـــى معظم أفكاره الأثيرة لديه، بل أصبح أكثر غضبا حينما رفض باريتو بغطرسة هذا الاتهام حينما وجه إليه. بل نجده يذهب إلى أبعد من ذلك فيلغي أية أشارات لموسكا في الطبعات الجديدة لمؤلفاته القديمة[٣٣].

ولا يعنـــى ذلـــك أن باريتو لم يتجاوز موسكا، ولتحديد هذه العلاقة بشكل دقيق نستند في هذا الصدد إلي تقديرا دقيقا لطبيعة العلاقة بينهما قدمه ســـيتوارت هوغ Stuart Hughes حينما كتب قائلا (تعتبر صياغة موسكا لهذه النظرية هي الصياغة الأولى والأكثر عمومية، هذا إلى جانب أنها تتميز بكونهـــا تقع فى المجال السياسى أساسا، وهي لم تفعل سوى النذر اليسير فى محاولتها تطوير ذاتها لكى تغطى تفاعلات المجتمع ككل.... وقد أكد موسكا فـــى كـــتابه الأول (أن كل طبقة سياسية تتعقل قواعدها بالنظر إلى صياغة سياســـية مقنعة، واستنادا إلي ذلك تعتبر الليبرالية والديمقراطية، والاشتراكية هى الأمثلة الواضحة فى عالمنا المعاصر) غير أننا نجد أن موسكا لم يطور اكتشافه أكثر من ذلك. فهو لم يذهب أكثر من افتراض – مثلما فعل باريتو- أن الصـــيغة السياســـية ليســـت ببســـاطة إلا مـــثالا واحدا لطائفة أشمل من الصياغات الرشيدة[٣٤].

رابعا: فلفريدو باريتو والدارونية الاجتماعية.

تعتـــبر الداروـــية الاجتماعية من النماذج النظرية التى كان لباريتو علاقة واضحة بها. فهو قد أخذ عنها ورفض فيها أفكارا كثيرة. ويمكن القول

ـار باريتو قد أعجب كثيرا بالدارونية الاجتماعية خاصة فى كتاباته الأولى، وبهربرت سبنسر كأحد رواد الدراونية الاجتماعية. ويمكن القول بأن كتابات باريـــتو حتى ١٨٩٦ كانت تشير إلى أعتقاد واضح فى ليبرالية القرن التاسع عشـــر، وهو الاتجاه الفكري الذي كان يفرض عليه ليس مجرد فرض تدخل الدولـــة، أو مجرد النضال من أجل الحرية التجارية والحرية الفردية، ولكن أيضـــا الاعتقاد فى التقدم كشعار أساسى بحكم تفاعل المجتمعات وتطورها. ومـــن الواضـــح أن قـــراءة أفكار باريتو تكشف مثلا أنه استفاد من مفهوم هربـــرت سبنسر عن التباين الاجتماعى، مؤكدا أن المجتمعات تتحرك خلال التاريخ من مرحلة متجانسة وغير متباينة إلى مرحلة غير متجانسة ومتباينة، وأن الدافـــع وراء هذه الحركة التاريخية يتمثل فى أن هناك درجة من التباين الاجتماعى المطردة التراكم بدأ منذ أيام الامبراطورية الرومانية وحتى الوقت الحاضر[٣٥].

غير أننا نجد أن باريتو فى وقت متأخر حينما شرع فى كتابه مؤلفه (المقدمـــة) تخلى عن اعتقاده فى أفكار التقدم لصالح اعتناق النظرية الدورية الميكيافيلية فى التاريخ، وأيضا لصالح الاعتقاد فى الدوام النسبى للخصائص الانســـانية الأساســـية. ويمكن القول بأن باريتو خلال هذه المرحلة كان ناقدا لسبنســـر والدارونية الاجتماعية[٣٦]. فقد أكد بأنه (إذا سلمنا بأن نظم المجتمع عـــادة مـــا تكـــون مـــتلائمة مـــع الظروف التى يتواجد فيها المجتمع، وأن المجتمعات لا تمتلك فى العادة نوعا من النظم التى تختفى فجأة، فإننا فى هذه الحالة نصل إلى مبدأ يمكن أن يساعد على تأسيس العلم). غير أنه أكد أيضا أن الآمـــال العريضة فى هذا الاطار لم تعطى أية ثمار. إذ ينبغى تفسير أي شكل للتنظيم أو الحياة الاجتماعية (على ما تذهب النظرية الدارونية) بالنظر إلـــى فائدتـــه أو نفعه. ولكي نحقق هذه الغاية، فإنه ينبغي أن يؤدي التنظيم الـــدور المفـــترض أو المتخيل أن يؤديه، والبحث فى الدارونية الاجتماعية يكشـــف أن هـــذه النظرية مجرد عودة إلى الأسباب النهائية[٣٧]. ومن ثم فقد شـــعر باريـــتو خلال هذه المرحلة بضرورة أن تخضع الدارونية الاجتماعية.

لـــنوع مـــن الـــتعديل الواضـــح، وأنهـــا لا تستطيع أن تفسر أشكال النظم الاجتماعية، وأن كل ما تستطيع أن تفسره يتمثل فى مجموعة التحديدات التى لا تســتطيع هــذه الــنظم تجاوزها[٣٨]. فالبيئة لا تستطيع أن تحدد الأشكال الاجتماعية أو تفرضها ولكن كل ما تستطيعه هو مجرد وضع حدود معينة لا تتجاوزها التغيرات التى تستهدف القدرة على البقاء. ومن ثم لا يمكن تفسير الســلوك الاجتماعـــى بواسطة البيئة، ولكن تفسير هذا السلوك يتطلب تحليل خصائص البشر الفاعلين في المجتمع.

وبرغم أن باريتو قدم رفضا لفكرتى الدارونية الاجتماعية المتعلقتان بالتقدم والتطور الاجتماعى، ثم أصبح ناقدا عنيدا لفكرة الدارونية التى تذهب إلـــى أنه باستطاعة التغيرات البيئية أن تفسر التغير فى الملامح النظامية. إلا أنه مع ذلك ظل مدينا للدارونية والأفكار السبنسرية المتعلقة بالتساند المتبادل بيـــن كل الظواهر الاجتماعية. وقد حبذ القول بهذه الفكرة من خلال دراسته للأنســاق الفيزيقـــية. غير أننا نري أنه إلى حد كبير اقتنع بإمكانية تطبيقها والاستفادة منها في إطار المجتمعات الإنسانية، وذلك من خلال قراءته لأفكار دارون وسبنســر. وقـــد اشتق باريتو مثل كل معاصرية من الأمريكيين من أمـــثال كولـــى Cooly، هربرت ميد Mead فى دراسته لسبنسر والدارونية وجهة النظر التي تؤكد علي التداخل بين الأجزاء العديدة للكيان العضوي[٣٩].

غـــير أننا نرى أن هناك مجموعة أساسية من الأفكار التى تأثر فيها باريـــتو بالدارونية أو على الأقل قدم رؤية مماثلة للدارونية بشأنها. وتتعلق الفكـــرة الأولى بتأكيد باريتو على الرواسب باعتبارها عناصر ذات طبيعة- بيلوجـــية سيكلولوجية- فطرية فى الكائنات البشرية، وأن وظيفتها الأساسية تتمـــثل فـــى صـــياغة تكـــيف الكائن العضوي مع البيئة المحيطة، ويمتلك الأشخاص الذين يمتلكون قدرا عاليا من الرواسب إمكانية عالية علي التكيف والواقع المحيط.

هـــذا بالإضـــافة إلـــى أن باريـــتو يجعـــل دورة الصفوة السياسية والاجتماعـــية مســـتلهمة لقـــانون الانـــتخاب الطبيعي الذي يؤكد علي البقاء

للأصـــلح. فهو يذهب إلى أن انتصار المغامرون (الثعالب) على المحافظون (الأسود) يتحقق إذا ضعفت الطبقات الحاكمة بسبب ضعف الرواسب الكامنة بداخلها. بيد أنه تظل هناك احتمالية عالية فى أن جماعة الصفوة التي تمتلك مستوى عال من الرواسب. يمكن أن تنتصر فى الصراع الاجتماعى ومن ثم تتقدم لتستولى على السلطة التي تسيطر عليها جماعة الصفوة (الأسود) التي ضعفت لديها بعض الرواسب.

أمـــا الفكرة الثالثة فتتمثل فى أن باريتو رأي أن الصراع الاجتماعى من أجل التكيف هو المدخل الملائم لحل مشكلات النظام الاجتماعى. فسيطرة الصـــفوة غـــير الحاكمة على مقاليد الأمور يتحقق لامتلاكها رواسب أقوي، ومـــن ثـــم قـــدرات أقوي على التكيف، وهى عادة ما تدخل فى صراع مع الصـــفوة الحاكمـــة التـــي ضعفت رواسبها ومن ثم ضعفت إمكانياتها على التكـــيف، بحيـــث ينتهـــي الصراع بالقضاء علي الصفوة الحاكمة واحتلال مكانتها.

هذا إلى جانب اعتبار باريتو أن مجرد ظهور النزعات الانسانية من قـــبل الطبقات العليا نحو الطبقات الدنيا يعتبر دليلا واضحا علي ضعفها. ثم نجده يرفض هذه المشاعر، مؤكدا أن الصراع هو المدخل الوحيد لانتقاء أكثر الصـــفوات قوة والتزاما للسيطرة على الأمور وضبط نظام المجتمع بالقوة، وفي ذلك ترديد لقدر كبير من الأفكار الداروينية.

خامسا:باريتو والتحليل بمتغيرات غير ماركسية.

يعتبر الحوار مع النظرية الماركسية من المواجهات الهامة التى قادها فلفريدو باريتو خلال حياته العلمية، حيث يتضمن مؤلفه النظم الاشتراكية كل جوانـــب الحـــوار الـــذي أسسه فيما يتعلق ببعض القضايا التى أثارها بشأن الماركســـية. ويمكـــن القول بأنه يمكن ارجاع حواره مع الماركسية إلى عدة اعتـــبارات أساسية، منها أن الماركسية شكلت فى ذاتها أحد النماذج النظرية التي تشغل مكانة أساسية في بناء التفكير العقلي الذي أفرزته مرحلة التنوير

فيما يتعلق بالانسان والمجتمع وطبيعة العلاقة بينهما. ثم أن الماركسية أيضا. مـن وجهـة نظـر باريتو - ليست إلا اشتقاقا أيديولوجيا يعبر عن رواسب المعانـاة التى عاشتها جماهير المجتمع الصناعى خلال هذه المرحلة. إضافة إلـى أن الماركسية من ناحية ثالثة تحاول تفسير تفاعلات النظام الاجتماعي القائم من منطق مختلف تماما.

ويكشـف البحث فى أصل الحوار مع الماركسية عن تخلق مجموعة مـن الظـروف الشخصـية التـى دعمت موقفه من نقد الاشتراكية ومن ثم الماركسـية كـأحد أشـكالها. ففى ١٨٩٨ توفى أحد أعمامه الذي أوصى له بـثروته، ومنذ ذلك الحين بدأ باريتو يقود حياة مترفة لم يكن يتيحها له راتبه الأكاديمى البسيط، ذلك أنه منذ أن أصبح ثريا فإننا نجده قد بنى لنفسه منزلا فى سيلنى القريبة من لوزان فى مقاطعة جنوا حيث الضرائب أقل من لوزان. وتعـرف هـناك علـى رفيق له يسهر على حياته وراحته وهو جان ريجيه Jane Règis. وفى فيلته التى بناها كان يعيش وحده مع مجموعة من القطط التـى جلـبها مـن أنقرة، والتى كان يحب أن تكون دائما حوله. وفى هذه المرحلة، عاش باريتو فعلا حياة مترفة، يحتسى خلالها النبيذ الفاخر والخمور المعـتقة، وبعد أربع سنوات من حياته علي هذا النحو، أي فى ١٩٠٢ نشر كـتابه الـنظم الاشتراكية Les Systems Socialistes، الذي يعتبر تحليلا ونقـدا تفصـيليا للمذاهب الاشتراكية وتدخل الدولة. حيث اتسم أسلوب هذا المؤلـف بالنقد الساخر والغاضب والمضاد للمذاهب الاشتراكية، برغم إدعاء باريتو بأن هذا المؤلف له طابع التحليل العلمي(٤٠).

ونسـتطيع أن نحـدد مواجهة باريتو للماركسية فى مجالين. الأول المجـال المنهجـى، أمـا الثانى فيمثل مجال القضايا المتعلقة بالواقع العينى المعـاش. وفـيما يـتعلق بالجوانب المنهجية نجد أن باريتو يرفض اعتبار الجوانـب الاقتصادية وبالتحديد وسائل الانتاج هى المتغير المستقل ومن ثم الضابط للتفاعل الاجتماعى. إذا أعتبر باريتو الاشتراكية العلمية وليدة الحاجة لإضـفاء الطـابع أو المظهر العلمي علي الطموحات الإنسانية (حيث أصبح

الشـكل العلمـي هو أسلوب أو موضة عصرنا) مثلما كان الشكل الدينى هو أسـلوب أو موضة عصر سابق. ومن ثم - فمن وجهة نظر باريتو- تعتبر تحلـيلات مـاركس للنسق الاقتصادي وللعلاقة بين الطبقات، ثم للاتجاهات البنائية للنسق، ولمصادر القوة السياسية، الخ... مجرد ممارسات لا معنى لها بالنسبة لباريتو طالما أن التحليل العقلاني للظروف لا يدفع البشر أو يوجههم بأي معني في أي اتجاه(٤١).

ثم يذهب إلى أنه لا يمكن تفسير الحقيقة الاجتماعية المعقدة بواسطة المتغيرات الاقتصادية فقط. حيث يتطلب ذلك دراسة إجتماعية تركيبية. فمن ناحـية لا يستطيع علم الاجتماع أن يفسر الحقيقة الاجتماعية المعقدة، إذا لم يـأخذ فـى الاعتبار قضايا الإقتصاد البحت كعلم، تلك التى يدرسها بصورة مـنعزلة، وفـى اطار شروط مبسطة للغاية. ثم يؤكد أن التفسير الاقتصادي للـتاريخ يصـبح صـحيحا طالمـا أن هـناك اصرار على أهمية العوامل الاقتصادية فى تشكيل الظواهر الاجتماعية. ولكنه قد يخطئ إلى حد بعيد إذا هـو قد حاول تفسير هذه الظواهر من خلال العوامل الاقتصادية فقط. أو أن يجعلهـا سـببا وحـيدا لها، بينما يجعل من العوامل الأخرى مجرد آثار أو نتائـج(٤٢).

أمـا الجانب المنهجي الثاني الذي واجه فى إطاره الماركسية فيتمثل فى التغير التاريخى وطبيعة العوامل المتحكمة فيه. ففى حين ترى الماركسية الذي يعبر عن التناقضات التاريخية باعتباره الوسيلة التصورية لوقوع التغير التاريخـى، نجـده يتصـور هـذا التغـير تطوري إلى الأمام ينشر الكمال الاجتماعى والانسانى، فالماضى هو الذي يصنع الحاضر والمستقبل معا. هذا إلـى جانب تأكيد الماركسية على الطبيعة العقلانية للانسان، باكتمال عقلانية الانسان أو رشده، أي أن اكتمال وعيه سوف يعنى تأسيس التغير فى الاتجاه التاريخى الصحيح. ذلك يعنى أنه فى حين يري ماركس الانسان كائنا عقلانيا يمـتلك إمكانـية الكمال والاكتمال، يراه باريتو كائنا لا عقلانيا أساسا وغير متغـير. وفـي مواجهـة ذلـك يقدم نظريته عن الرواسب بهدف شرح هذه

القضية. وفى حين يري ماركس الصراع الطبقى فى التاريخ باعتباره يقع فى الانســاق الاجتماعــية المطرد شيوعها أو شعبيتها (على الأقل بمعنى زيادة شــوق أو إمكانية الانسان إلى الحرية، أو السيطرة على قدره)، ينظر باريتو إلـــى التاريخ باعتباره دائريا Cyclical أساسا. وعلى نقيض مباشر لنظرية ماركس عن الصراع الطبقى قدم باريتو نظرية الصفوات، حيث تعتبر دورة الصــفوات هـــى المــادة الحقيقية للتاريخ، لها نتائجها أو آثارها القليلة على الشعب، أو ربما ليس لها نتائج علي الاطلاق(٤٣).

ثــم نجــده يــتقدم ليطرح العواطف الانسانية كمبدأ أساسى للتفسير. فخـــلال مؤلفـــه (الـــنظم الاشتراكية) يؤكد باريتو أن العواطف تعتبر القوى الأساســية والمسيطرة على السلوك الاجتماعى. وأن المنطق والعقلانية لهما أهمــية ضئيلة. وعلى الباحث ألا يتوقف عند تبرير البشر العقلى – الذي يعد لا شـــئ إلا أن يكـــون معقـــولا– وإنمـــا عليه أن يتجه إلى تبرير العواطف الكامـــنة، وعلــى هــذا النحو تصبح العواطف بالنسبة لباريتو ما كان عليه الأســـاس الاقتصادي بالنسبة لماركس. ولكن بينما تؤدي التغيرات فى النسق الاقتصادي إلى تغيرات فى أخلاق البشر وبناؤهم السيكولوجى فى النهاية فإن الأساس العاطفى لباريتو يظل هوية غير متغيرة، فالذي يتغير هي التبريرات التي تفسر السلوك الانساني.

وبإيجاز يري باريتو البشر– على خلاف ماركس– رؤية سيكولوجية مخـــتلفة. حيـــث يخـــتلف أبـــناء الطـــبقات العليا والسفلى من حيث بناؤهم الســـيكلوجى. وعـــادة ما يكون ذلك نتيجة للعواطف غير المنطقية. حيث لا يحصـــل الأفراد من الطبقات الدنيا بصفة خاصة على أي قدر من الوعى أو الادراك العقلانـــى لظروف حياتهم أو وجودهم. ثم نجد باريتو يقدم لنا بعض مبادئ الحساب العلمى المنفعى. إذ يؤكد أن قدرا معينا من الإرادة الخيرة من جانـــب الطبقات العليا نحو الدنيا قد يكون له نفع. غير أن أي زيادة قد تكون ضـــارة ومؤشرا على الانهيار. إذ تؤدي إلى الانسانية فى كل فترات التاريخ إلـــي ظهور نوع من اليقظة العاطفية. وحيثما يكون هناك قدرا خافتا من هذا

الاتجـــاه فـــي الشـــعر والأدب، فإن ذلك يكون دلالة على قوة الصفوة ودعم مكانتها. غير أنه بانهيار الصفوة فإننا نجد نموا للعاطفة الانسانية. تلك هى إذا فكـــرة باريـــتو الرئيسية، أعني نظريته عن العواطف، التي تعد (الرواسب) و(المشتقات) تجليا لها.

وقد ينتاب العواطف تغيرا ضئيلا، وقد لا تتغير على الاطلاق. أما ما يتغـــير فهـــو الطلب المحدد على عواطف معينة، أو التبريرات التى تطرح لبعض الأفعال التى تدفع إليها هذه العواطف. وفى هذا النطاق نجد أن باريتو يري أن هناك فصلا حادا بين الصفوة واللاصفوة. إذ تتصرف الصفوة بوحى المصـــلحة الذاتية، بينما تدفع الطبقات الدنيا الخاضعة إلى حد كبير بواسطة العاطفـــة. ولكـــى توسع الصفوة مصالحها، فإن الصفوة تجد من الملائم أن تطلـــب الدعـــم الملائـــم من عواطف الطبقات الدنيا. وهنا نجد أن اللاصفوة nonelite تدفـــع إلى الفعل بواسطة قوي عمياء، بينما تؤدي الصفوة دورها حســـب إدراكهـــا العقلانى لطبيعة الموقف. ولعله دليل يمكن الدفاع عنه أن الطـــبقات الدنـــيا من الناحية التاريخية قد دفعتها قوي لا عقلانية أساسا. أما الطبقات العليا فعادة ما تقودها الاعتبارات العقلانية. وبدلا من أن يري باريتو هـــذه التشكيلات السيكولوجية المختلفة كنتائج للاختلافات فى ظروف الحياة الخاصة بكل من الطبقتين، نجده يري هذه الاختلافات السيكولوجية باعتبارها خصائص دائمة. فالعاطفة هي الأساس أما الباقي فمجرد مظهر خادع[٤٤].

ويذهب باريتو إلى القول بأن العواطف تختلف من حيث النفع، وأنها غير موزعة بالتساوي فى المجتمع. حيث تعتبر التعديلات فى أشكال المجتمع نتيجة لانتقالات أو تحولات فى هذه العواطف. ويمكن للباحث أن يلاحظ هذه الـــتذبذبات الهائلة التى تكررت فى التاريخ بدرجة أكثر أو أقل. فمثلا تستبدل فـــترات الشك بفترات من الأيمان. ولما كان كل فرد يشغل مكانة محددة فى الهـــرم الاجتماعى، ومن ثم فإذا رتب الباحث منا الأفراد حسب درجة التأثير والقوة السياسية فإنه سوف يجد فى معظم المجتمعات أن هؤلاء الذين يملكون درجـــة أعلـــي من التأثير والقوة السياسية سوف يكونوا هم أنفسهم من الذين

يملكـــون أكبر الثروات، وهؤلاء هم الصفوة. وفي ذلك نجد أن باريتو يشبه مـــاركس إلى حد كبير فيما يتعلق بتأكيده على التلازم بين القوة الاقتصادية السياسية. ولكن حيثما تميل القوة الاقتصادية بالنسبة لماركس إلى تحديد القوة السياســـية، فـــإن باريتو يري أنهما يتحددان معا بواسطة وجود الأفراد الذين يمتلكون خصائص الصفوة، أي الذين يمتلكون عواطف الصفوة(٤٥).

إلـــى جانـــب ذلك هناك مجموعة أخرى من الخلافات مع الماركسية علـــى الجانـــب العينى، أي فيما يتعلق بالتفاعل فى إطار الواقع الاجتماعى. ونخص بها ثلاثة وقائع أساسية، الأولي وتتعلق بطبيعة تغير البنية الطبقية فى المشـــروع الماركســـي، وتتصـــل الثانية بطبيعة الصراع الطبقي، أما الثالثة فتختص بطبيعة المجتمع الشيوعي الذي يتخلق عن الصراع الطبقي والثورة البروليتارية.

وفيما يتعلق بالصراع الطبقى نجد أن ماركس يؤكد أن بمجرد إكمال وعـــى البروليـــتاريا وإدراكها لمصالحها، فإنها تقود عادة الصراع والثورة. ومن ثم تغيير البنية الطبقية وبالتالى البنية الاجتماعية. ذلك يعنى أنه إذا اتفقنا علـــى أن الصراع الطبقى يعتبر مقولة رئيسية فى البناء النظري الماركسى فـــإن ذلك يدفعنا إلى التساؤل المتعلق بموقف باريتو من هذه المقولة. إذ نجد باريتو يؤكد من ناحية على تناقض المصالح الطبقية، ومن هذه الناحية نجده يقـــدر موقف ماركس فيما يتعلق بإبرازه لدور هذا العامل(٤٦). ثم يذهب إلى التأكـــيد بـــأن الاشتراكية على حق تام فى تأكيدها على الدور الهام للصراع الطبقـــى، أو إقرارها لهذا الدور باعتباره أكثر حقائق التاريخ أساسية، ويذكر أن أعمـــال ماركس ولوريا Loria تستحق بالنظر إلى ذلك اهتماما كبير(٤٧). غير أنه عند هذا الحد يتوقف اتفاقه مع ماركس ويبدأ خلافه معه. حيث يري باريـــتو أن الصـــراع الطبقي من المقرر أن يستمر أبدا، وذلك على خلاف ماركس الذي يراه ظاهرة انتقالية، أو لنقل ظاهرة تاريخية. وتأكيدا على ذلك يذهـــب باريتو إلى أن أشكال البناء الطبقى قد تتغير بيد أن جوهره يظل كما هـــو. وذلـــك يرجع بالأساس إلي أن الصراع له جذوره العميقة في الطبيعة

البشـــرية، وهو أحد أشكال صراع البشر من أجل الحياة. فالصراع من أجل الحياة، أو من أجل الوجود الأفضل ظاهرة مرتبطة بالكائنات الحية. وكل شئ نعــرفه يرتـــبط بذلك يقودنا عادة إلى التسليم باعتبار الصراع أعظم القوي الأساســية للحفاظ على بقاء الجنس وتحسينه. ومن ثم فمن غير المحتمل أن يــتجاوز البشـــر هـــذه الحالـــة. وأن جهودنا لن تسفر عن تغيير جذري فى طبيعـــته، ولكـــن إلى مجرد تعديلات طفيفة فى أشكاله. وهنا نجد أن باريتو يـــنظر إلى الصراع الطبقى باعتباره جانبا لا ينفصل عن صراع البشر مع الطبـــيعة ومـــن ثـــم فكلاهما حتمى ولا نهاية له. ذلك يعني أن الصراعات الاجتماعـــية لهـــا جذورهـــا فـــي الطبيعة، وليس فقط فى الطبيعة الأساسية للانســـان، الـــذي نجده مندفعا نحو إنجاز فعله بواسطة قوي طبيعية ومن ثم (غير منطقية)(٤٨).

أمـــا فيما يتعلق بالتغيير الاجتماعي الذي يراه ماركس نتاجا للصراع الطبقـــي وتعبيرا عن وصول التناقض الطبقى إلى منتهاه، وهى العملية التى يســـاعد علـــيها ظرف تحقق الوعى الموضوعي لطبقة البروليتاريا وسعيها لتحقـــيق مصـــالحها، ومـــن ثم فهى تطيح بالطبقة الأخرى من خلال التغير الـــثوري البروليـــتاري. فى مواجهة ذلك يطرح باريتو رؤية أخرى للتغير الاجتماعـــي، أو للأســـلوب الـــذي تـــنهار به الصفوة الحاكمة. إذ يؤكد أن الصفوات والطبقات الأرستقراطية لا تدوم، وإنما تفنى بصورة سريعة. ومن ثم تبرز الحاجة أمام كل صفوة لتقوية نفسها بدعم من الطبقات الدنيا، بل من افضـــل عناصر هذه الطبقات. ويعبر انهيار الصفوة عن نفسه بظهور حالة متطرفة من النزعة الانسانية المرضية. بينما تتشكل الصفوة الجديدة الممتلئة بـــالقوة والحـــيوية فى قلب الطبقات الدنيا. ويكتب باريتو قائلا أن كل صفوة تكون غير مستعدة للدفاع عن موقعها فإنها تسقط فى حالة من الانهيار التام. ولا يكـــون أمامهـــا سوى اخلاء مكانها لصفوة أخرى تمتلك خصائص القوة والحيوية التى افتقدتها الصفوة السابقة. فبواسطة القوة يمكن أن تتأسس النظم الاجتماعية. وبواسطة القوة أيضا يتم الحفاظ عليها. ويعتبر صراع الصفوات

ودورتهــا هــو المــادة الدائمــة للتاريخ. وحينئذ، تعتبر الهبات الشعبية من الحــركات التى قد لا تكون لها نتائج حقيقية بالنسبة للشعب، غير أنها تساعد فقــط على تسهيل سقوك الصفوة القديمة وصعود الصفوة الجديدة. وتستخدم الصفوات الطبقات الدنيا، عن طريق اشباع بعض عواطفها، لكى تحافظ على بقــاء القوة أو الحصول عليها. ويكتب باريتو مؤكدا أن معظم المؤرخين لا يــرون هــذه الحــركات، وإنمــا يصفون هذه الظاهرة كما لو انها صراع الأرســتقراطية أو الأولجاركــية مــع الشــعب، بيــنما هــناك فى الحقيقة أرســتقراطيتان تتصــارعان من أجل السلطة، ذلك أن الثورات العديدة التى وقعــت فــى الــتاريخ – منها مثلا انتصار البرجوازية على الارستقراطية الأقطاعية – لم تحقق شيئا للشعب، ولن تحاول ذلك فى المستقبل[٤٩]. وهو ما يعنــى بالإضافة إلى ذلك أن باريتو يحصر الصراع في إطار الصفوات التى قد تستخدم الشعب آداة فى الصراع، بينما يري ماركس الصراع شعبيا أساسا تشارك فيه الأغلبية في قيادة حركة الثورة ضد الأقلية.

وتشكل المرحلة الشيوعية فى النسق النظرى الماركسى القضية الثالثة التــى شــكلت إطارا للحوار بين كل من باريتو وماركس. وإذا كانت الرؤية الماركســية قــد أكــدت علــى إنتفاء الطبقات، ومن ثم الصراع الطبقى فى المجــتمع الشيوعى، باعتبار انتفاء التباين الاجتماعى والانسانى بين الأفراد وتحقــق اكتمال الانسان. فى مواجهة ذلك نجد ان باريتو يذهب إلى أنه ليس هناك تحريرا نهائيا للانسان وليس هناك مجتمعا لا طبقيا[٥٠]. ثم نجده يسخر من الاشتراكيين الذين يثقون بصورة كاملة بأفكار ماركس وانجلز باعتبارها مخــزنا لكــل المعرفة الانسانية[٥١]. ويذهب باريتو إلى انه وأن سلم بفكرة الصــراع الطبقــى التــى أثرت على حركة التاريخ بأسلوب واضح، إلا أن مــاركس– بنــي المجــتمع اللاطبقي– ليس بالنسبة له سوى متعهد أساطير Purveyor to Myth . ومــن ثــم فالقريب إلى قلب باريتو الميكيافيلى هو مــاركس المحلــل القــوي لصــراع الطــبقات مــن أجل امتلاك القوة فى المجــتمــع[٥٢]. وبصــورة أكــثر وضــوحا يؤكد باريتو قائلا لنفترض أن

الجماعـــية Cllectivism قد تأسست وأن رأس المال لم يعد موجودا، حينئذ يكون قد اختفى شكل واحد فقط للصراع الطبقى. وأن شكلا آخر سوف يظهر ليحل محله. إذ سوف تظهر صراعات جديدة بين الأنواع المختلفة من العمال والدولة الاشتراكية، بين المثقفين وغير المثقفين، بين رجال السياسة المتعددى الاتجاهـــات. بين رجال السياسة ورجال الإدارة. بين المجددين والمحافظين، الـــخ. ثم يتساؤل هل هناك حقا هؤلاء البشر الذين يتخيلون بصورة جادة أنه بحلول الاشتراكية فإن التجديد الاجتماعى سوف يتوقف؟ هل لن تكون هناك رؤيـــة لمشـــروعات جديـــدة، وهـــل لـــن تدفـــع المصالح البشر لتبنى هذه المشـــروعات بـــأمل الحصـــول على مكانة متميزة في المجتمع؟ ثم يتساءل باريتو لماذا هو مقدر أن يكون الصراع الطبقى أبديا فى المجتمع الانسانى؟، ثـــم يجيـــب أن دوام الصراع لا يرجع لكون المجتمع معقد ومتباين، ومن ثم يضـــم عديـــدا من الجماعات ذات المصالح المتباينة والمتناقضة، ولكن لأن الصراع له جذوره في الطبيعة البشرية، بل أنه يعتبر أحد أشكال الصراع من أجل الحياة(٥٣).

سادسا: نظرية باريتو، العواطف الشخصية والاجتماعية.

ممـــا لاشـــك فيه أن هناك تأثير لبعض الأحداث على تفكير فلفريدو باريتو، سواء تلك التى وقعت على بعد تاريخ الحياة الشخصية أو على البعد المجتمعـــى، وهـــو ما سنعرض له بايجاز. فعلى المستوى الشخصى نجد أن باريـــتو قـــد قاد حياة شخصية غير مستقرة تتميز بضعف علاقاتها بواقعها المحـــيط. ويتضـــح ذلـــك سواء خلال المرحلة الجامعية حيث انعزاله داخل الجامعـــة عـــن زملائه حتى بعد أن أصبح عميدا لكلية القانون. وهى العزلة التـــى أعجزته عن إحراء بعض التغييرات الرئيسية فى برامج الدراسة، هذا إلـــى جانب هروب زوجته منه مع أحد خدمة. كل ذلك فرض عليه احساسا بعدم الثقة بالآخرين بل وعدم التألم لآلام الآخرين، ومن ثم كان إعجابه الدائم بالصفوة والقوة وقدرتها علي إخضاع الآخرين.

أمــا المسألة الثانية على البعد الشخصي، فهي حالة الثراء المفاجئ- نتيجة للأرث- التي أصابته، والتي وفرت له أمانا اقتصاديا ملائما دفعه إلي العــزلة المــترفه عــن حياة الجماهير ومعاناتها. وهي الحالة التي نجد لها انعكاســا مباشرا في نقده للمذاهب الاشتراكية، وخاصة النظرية الماركسية، والتأكــيد علــى القوة أو السلطة القمعية للجماهير، وادانته لكل المشاعر أو العواطــف الانســانية بــل إنه اعتبر ظهور هذه المشاعر في إطار الصفوة الحاكمــة دالــة أساســية علــى ضعف هذه الصفوة. هذا إلى جانب العزلة الأكاديمية التي كانت ملامح شخصيته أحد أسبابها. وحسبما يؤكد لفنجستون، فإنه قد أخذ عن كل السابقين عليه ولم يذكر ما أخذه عنه، وتتجلى هذه الحالة بأوضــع مــا تكــون حينما اختلف مع جيتانو موسكا، إذ نجده قد راجع كل مؤلفاتــه وألغــى مــنها أي ذكــر لموسكا، وهو ما يعني تأكيده علي أنانيته الشخصية ولو علي حساب كثير من الاعتبارات الأكاديمية.

وعلى البعد الاجتماعي توجد بعض الوقائع التي كان لها تأثيرها على طبــيعة تفكــيره. مــن هــذه الوقائع حالة التخلف العام الذي تعتبر من أهم مؤشــراتها انتشــار الأمية إلي ما يتجاوز ٧٠%، خاصة في جنوب ايطاليا، وهــى الحالة الثقافية إلى أعجزت الجماهير عن المشاركة السياسية الفعالة، ممــا دفع باريتو إلي التأكيد على مسألتين الأولي غياب الجماهير أو الغالبية الفعالــة عــن بنائه النظري، فهو يري أن حركة التاريخ تتكون أساسا من صــراع الصــفوات ودوراتهــا. أما المسألة الثانية – فتتمثل في تأكيده على اللاعقلانــية فــي مقــابل العقلانية التي قالت بها النظريات الأخرى، وعلى الرواســب والعواطــف الكامــنة في عمق الذات الانسانية، باعتبار أن هذه العناصر تشكل العناصر الحقيقية الدافعة لحركة التاريخ.

أمــا الواقعة الثانية التي كان لها تأثيرها على تفكيره فتتمثل في حالة الانهيار البنائي الذي عانت منه ايطاليا خلال هذه المرحلة، وحالة التفتت التي عاشــها المجتمع الايطالي خلال هذه الفترة. كذلك حالة الفساد التي انتشرت، كــل ذلــك دفعــه إلــي التأكيد علي الصفوة وعلي استناد الصفوة إلي القوة

كميكانــيزم أساسى للحفاظ على الوحدة الاجتماعية – وهو هنا يذكرنا بأفكار توماس هوبز عن القوة والسيف- بحيث اعتبر أن مجرد رفع الصفوة لبعض الشــعارات الانســانية والعاطفــية يعتبر دالة أساسية على انهيارها كصفوة وضــرورة تغيــيرها بعناصــر جديدة قادرة علي الامساك بالقوة أو السلطة لفرض الوحدة والتكامل علي النظام الاجتماعي.

ذلــك يعني أن كثيرا من أفكار فلفريدو باريتو، أو على الأقل جوانب كثيرة منها تعتبر بالأساس انعكاسا لطبيعة التفاعلات التي عاشها سواء علي المستوى الشخصي أو علي مستوي الواقع الاجتماعي.

الفصل الثاني

المنهج عند فلفريدو باريتو طبيعة القضايا الأساسية

تمهيد:

ترتبط اسهامات فلفريدو باريتو المنهجية بطبيعة القضايا النظرية التى شكلت بنائه النظرى، وطبيعة تصوره للواقع الاجتماعى والتفاعلات الحادثة فيه، وإذا كانت قضاياه النظرية قد اختلفت فى طبيعتها عن مختلف التصورات النظرية التى عايشت عصره. فإننا نجد أن منهجيته قد اختلفت اختلافا واضحا عن مختلف التوجهات المنهجية التى سادت عصره، بحيث نجد أنه بموقفه النظري واجراءاته المنهجية وقف بعيدا عن التيار الذي سار فيه مفكرون آخرون.

فمن ناحية رؤيته للحقيقة الواقعية ومحاولة تحديد المتغيرات المؤثرة فى تفاعلها نجد أن باريتو يتجاهل كافة المتغيرات التى عمل بها عصره، وهى المتغيرات الكامنة خارج الانسان – العنصر الأساسى فى التفاعل- كالمتغيرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والجغرافية وحتى الاجتماعية. ويتجه إلى التأكيد على أن كافة المتغيرات التى عمل بها المفكرون الآخرون هى مجرد نتائج لمتغيرات أساسية هى تلك الكامنة فى عمق الذات البشرية أو الانسانية، والتى تشكل بداية التفاعل، وبداية الوجود الاجتماعى ذاته. وحسب طبيعة هذه المتغيرات الراسبة في العمق تتحدد طبيعة المجتمع، وتتحدد أيضا طبيعة النظام السياسي المحيط.

من ناحية ثانية نجد أن فلفريدو باريتو قد تبنى منهج العلوم الطبيعية من ناحية حيث التجربة هى المصدر الحقيقى للحقيقة، ثم هو فى ذات الوقت اهتم بتطوير المفاهيم المعبرة عن الحقائق، ثم بطبيعة العلاقات المنطقية التى تربط بين هذه المفاهيم لتشكل منها بناءا تصوريا متكاملا، وإذا كانت التجربة هى جوهر المنهج فى العلوم الطبيعية، وإذا كان المنطق الرياضى هو جوهر علم الاقتصاد، فقد كانت علوم الاقتصاد والطبيعة هي النماذج التي ينبغي أن تحتذيها الممارسة العلمية في إطار علم الاجتماع.

إضافة إلى ذلك فقد رفض باريتو التفسيرات الأحادية، ورأي أن أي واقعة اجتماعية طرحت لها تفسيرات متنوعة، وهو ما يعني أن تنوع العوامل يمكن أن يشكل عوامل مؤثرة في الواقعة، وهو هنا يؤمن بتعدد العوامل. إضافة إلى تأكيده بأنه إذا عجز عامل أو قانون معين عن تفسير واقعة اجتماعية بحيث أعتبرت استثناءا له. فإنها بالتأكيد تكون خاضعة لفاعلية قانون أو عامل آخر.

ويتحدد موقف باريتو من الأدوات المنهجية المستخدمة في علم الاجتماع لجمع المعطيات، برفض الوسائل أو الأدوات إلا تجليا لحقيقة أساسية راسبة ينبغي أن يتجه إليها استكشاف أدوات البحث، وهو هنا ينتقد الاستبيان باعتباره يحاول التعرف على استجابات البشر اللفظية نحو موضوع معين، حيث يؤكد أن هذه الاستجابات اللفظية ليست سوي تبريرات تعطى لأفعال أو سلوكيات معينة، قد تكون هذه التبريرات صادقة أو زائفة، غير أنها في كل الأحوال لا تكشف عن الرواسب التي تشكل الدوافع الحقيقية للسلوك أو الفعل. وهي الجوانب التي سوف نعرض لها في الصفحات التالية.

أولا: علم الاجتماع، مشروعيته ومجالاته.

من المنطقي أن تصبح قضية نشأة علم الاجتماع، وتحديد مجالة من القضايا الرئيسية التي لابد أن يتعرض لها باريتو، وذلك باعتبار أن هذه القضية كانت من القضايا الهامة التي شغلت النظرية الاجتماعية في مرحلتها الكلاسيكية. وقد ظهر اهتمام باريتو بعلم الاجتماع نتيجة لاهتمامه بعلم الاقتصاد أساسا. فالمتغيرات التي تعمل بها النظرية الاقتصادية، أقل من أن توفر فهما كاملا للسلوك البشري. ذلك أن الاقتصاد وخاصة الاقتصاد الحديث قد خص نفسه بجانب واحد من الفعل أو السلوك الانساني، أعني الفعل المنطقي أو العقلاني الذي يسعى إلى امتلاك المصادرة النادرة. وقد تحول باريتو إلى علم الاجتماع حينما أدرك أن الأفعال غير المنطقية أو اللاعقلانية هي التي تتحكم في التفاعل الاجتماعي، وهي الأفعال التي استبعدت من مجال

الدراســات الاقتصادية. ولهذا السبب فقد حاول فى مؤلفه (المقدمة) أن يفهم الجوانب غير العقلانية للسلوك الانسانى، بحيث ألغى كلية الجوانب العقلانية للســلوك، وذلــك لاقتــناعه بأنهــا قد درست بدرجة كافية بواسطة النظرية الاقتصادية[1].

ذلــك يعنـــى أن باريــتو كان يبحث عن تحديد عقلانية اللاعقلانية الســائدة. وهــو فـــي ذلك لم يقصد أن يتخلى عن النظرية الاقتصادية، على طــريقة فبلــن Veblen، ولكــنه حــاول اســتبدال تجــريداتها بالمفاهيم السوســيولوجية والســيكولوجية التــى قد تساعده على فهم جوانب السلوك البشـــري. إذا مــا كان يهدف إليه باريتو، هو الفصل التحليلى بين العناصر الرشــيدة أو غــير الرشــيدة للفعــل أو السلوك، وليس إلى تصنيف السلوك الواقعـــى. (فنحــن لا نسعى إلى تصنيف الأفعال كما هي في الواقع، ولكننا نحاول تحديد العناصر التي تميزها)[2].

وإذا كــان الانســان قد بقى دائما كائنا اقتصاديا، غير أنه فى الواقع يعتــبر كائــنا أكثر تعقيدا من مجرد كونه كائنا يبحث عن اللذة. ولفهمه فإن عليــنا أن نأخذ فى الاعتبار مشاعره وغرائزه وتحيزاته. ومن ثم فلكى نفهم الظواهــر الاقتصادية الحقيقية والمعقدة، فإننا ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار كل العوامل الهامة التى أغفلناها فى تحليلنا الاقتصادي. وهى العوامل التى توجد فى الواقع وتؤثر على الظواهر الاقتصادية الخالصة. وعلى هذا النحو يعتبر علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي يستطيع أن يأخذ فى الاعتبار كل النتائج التـــى وصلت إليها الدراسات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى، بحيث يســتطيع هذا العلم – علم الاجتماع– أن يؤسس تأليفا بين هذه المعطيات بما يساعد علي فهم السلوك الانساني.

وفى محاولة تحديد طبيعة العلم يرفض باريتو الطابع التأملى للتفكير، مؤكــدا علـــى ضرورة أن يتميز العلم بالطبيعة التجريبية المنطقية. وهو ما يعنـــى تضمن العلم لعنصرين رئيسيين: البرهنة المنطقية وملاحظة الحقيقة. وتعتــبر البرهــنة المنطقــية بطبيعــتها أســلوبا عاجزا عن تأسيس النتائج

الضـــرورية التـــى تذهب أبعد من اللغو الكلامى. غير أنها برغم ذلك تعتبر عنصرا أساسيا فى البناء المنهجى لعلم الاجتماع. ومع ذلك، فمن المعتقد أن تظـل هذه البرهنة المنطقية خاضعة للعنصر الآخر الذي يتمثل في الحقيقة[٣] التي تم الوصول إليها تجريبيا أو عن طريق الملاحظة.

وباعتبار أنه قد أكد على ضرورة أن يكون العلم تجريبيا – منطقيا، فإن ذلك يعنى ضرورة استناده إلى الملاحظة والتجربة واستبعاده لكل تفكير أو تـــأمل يذهب بعيدا عن الحقائق موضع الملاحظة. إذ لا ينبغى أن تتضمن قضايا علم الاجتماع شيئا أكثر من وصف الحقائق واطراداتها. ومن ثم فعلى علـــم الاجتماع– إذا ما تأسس– أن يؤدي دوره بواسطة مفاهيم أو تصورات تـــتعلق بالاعـــتماد المتـــبادل، والعلاقـــات الوظيفية المتبادلة، والاطرادات والانـــتظامات، والارتـــباطات فـــى الزمان والمكان، وأيضا بواسطة القياس الكمى. ذلك يعنى أن على علم الاجتماع أن يستبعد الأفكار المتعلقة بالاعتماد الأحـــادى الجانـــب، أو المـــتعلقة بالســـبب أو النتيجة بالمفرد وغير المطرد والمتميز. وبهذه الطريقة سوف يكون علم الاجتماع قادرا على الوصول إلى مجموعـــة من التعميمات التي تقترب من الواقع الاجتماعي المتشابك بصورة أكثر دقة[٤].

وإذا كـــان موضع اتفاق بين جمهرة الباحثين، أن يصبح العلم لما إذا هـــو قـــد أمتلك نظرية خاصة به، ومنهجا يستند إلى هذه النظرية في إدراك واقـــع يـــتحدد كمجال لهذا العلم، فإننا نرى أن تحديد باريتو لموقفه من هذه المكونـــات الثلاث ينم عن موقف متميز خص به نفسه. ففيما يتعاق بالموقف مـــن الـــنظرية نجـــده يؤكد أن الحقيقة التجريبية لا تتضمن بالضرورة كلية الظاهرة الواقعية، ومن ثم تتكون نظريات العلم التجريبى المنطقى من القضايا المـــتعلقة بالحقيقة بحيث تكون هذه القضايا مرتبطة ببعضها البعض بواسطة نـــوع مـــن البرهـــنة المنطقية[٥]. غير أننا نصل إلى الحقائق المتضمنة فى صـــياغة الـــنظرية من خلال عملية التحليل، ومن ثم فهى ليست بالضرورة توصـــيفات كاملـــة للظواهـــر الواقعية. ويذهب باريتو إلي القول (بأنه من

المستحيل أن نتعرف على ظاهرة واقعية معينة بكل تفاصيلها). ولا يعتبر نقدا للنظرية له قيمته حينما نذهب إلى القول بأنها لا تفسر بصورة كاملة الظاهرة الواقعـية، بـل على العكس من ذلك، فإنه يعتبر ميزة لها. وعادة ما تصف الحقائق أو القضايا الكائنة فى بناء النظرية، العناصر أو الجوانب أو الخواص المتعلقة بالظواهر فى كليتها. وعلى هذا النحو نجد أن باريتو يرفض بوضوح الـنزعة الامبيريقية التى نجدها عند مارشال، مؤكدا أن على العلم أن يحلل الظواهر الواقعية المعقدة أولا، حتى يمكنه الوصول بعد تحليلها إلى النظريات التحليلـية، التي يمكن من خلال التركيب أو التأليف بينها أن نصل إلي تقدير علمي لأي من جوانب الحقيقة الواقعية[٦].

ويحاول باريتو أن يعطى توضيحا لذلك من بناء النظرية الاقتصادية، حيـث يذهـب إلي القول (بأننا إذا افترضنا (ق) باعتبارها نظرية الاقتصاد السياسـي، فإن الظاهرة لا تتضمن عادة العنصر الاقتصادي فقط (أ)، ولكن يوجـد بهـا عناصـر إجتماعـية أخرى مثل (ب)، (ج) ....، ... كما يفعل كثيرون. ويتمثل الطريق الذي اتخذه باريتو لتأسيس النظرية التحليلية المجردة والتـى يمكـن أن تـناظر النظرية الاقتصادية، فى أنه لم يضع النظرية فى مواجهـة الحقيقة. ولكنه حاول تضمين عنصر التجريد النظرى فى مفهومه عـن الحقيقة ذاتها. وحسبما يذهب، أنه إذا كانت مبادئ العلم التجريبى تعتمد كلـية علـى الحقـائق، فإن ذلك يصبح متيسرا فقط، لأن الحقائق أصبحت ملاحظـات بالنظر إلي إطار تصوري، ومن ثم فهي ليست توصيفات كاملة للظواهر الواقعية[٧].

ثم ينتقل باريتو إلى نقد النظريات القائمة فى علم الاجتماع مؤكدا أن معظم النظريات الاجتماعية القائمة حتى الآن ليست قضايا تجريبية منطقية. وبدرجـة مـا يمكن القول بأنها كلها ذات طبيعة دوجماطيقية وميتافيزيقية، وتجريبـية غـير منطقية، ومطلقة وذات بعد أخلاقى. هذه النظريات تتجاوز عادة حدود الحقائق والملاحظة والتجريب، وحتى المنطق. ومن وجهة النظر هـذه فـإن علم اجتماع هربرت سبنسر، وأوجست كونت يفتقد إلي حد كبير

الطبيعة العلمية، لأنه يماثل النظريات الثيولوجية أو الدينية التى ينتقدها. حيث أدخلــت علوم الاجتماع هذه (الخاصة بكونت وسبنسر) فى نظريات عناصر تتجاوز الحقيقة تحت أسماء أخرى، وتتجاوز التجريب أيضا. فهى ذات نزعة دوجماطيقية، وأخلاقية، مثل ديانة التطور والتقدم، أو ديانة الوضعية، وغير ذلــك مــن المســميات. هذه النظريات لا تعتبر شيئا أكثر من مجموعة من القضايا المطلقة التى تحتوي على عناصر كثيرة تتجاوز الحقيقة والملاحظة. وأنها لا تختلف عن النظريات الدينية التى تنقدها سوى فى الصياغة اللفظية. فالنظريات الاجتماعية المتعلقة (بديانة الانسانية) (وديانة التضامن والاتحاد) (والديمقراطــية). ومفاهيم (التقدم) (الاشتراكية) (التطور) (الأخاء) (الحرية) (العدالة) (المساواة) وغير ذلك من النظريات والمفاهيم التى تبشر بما ينبغى أن يكون وبما لا ينبغي أن يكون، أو تلك التي تقيم ما هو خير وما هو ضار، أو كــل القوانيــن المــتعلقة بالــتطور والنمو. هذه النظريات أو التصورات المنتشــرة بوفــرة علــى خــريطة الفكر الاجتماعى المعاصر، نجدها كلها تأسيســات نظــرية غير علمية، وهى من هذا الجانب كأي ميثولوجيا. وذلك لأنها ليست إلا صياغة معاصرة لهذه الثيولوجيا. ومثل الثيولوحجيا، لا تعتمد هــذه الــنظريات على الحقائق والملاحظات الواقعية، هذا إلى جانب أنها لا تصف خصائص أو اطرادات هذه الحقائق، ولكنها عادة ما توصى بما ينبغي أن يكون، أو هي تفترض وجود كيانات خارج الملاحظة والتجريب[٨].

فإذا شكل ما سبق موقف باريتو من النظرية العلمية ومنطق تأسيسها، فما هو طبيعة موقفه من مجال دراسة هذا العلم. في هذا الصدد يري باريتو أن المجــتمع يشــكل مجال الفعالية الحقيقية لعلم الاجتماع. والمجتمع بالنسبة لباريــتو هــو عــبارة عن نسق من القوي الموجودة فى حالة توازن. حيث يحــتوى المجــتمع علــى مجموعة من العناصر المتضمنة فى هذا النسق، كالمجموعــة الفيزيقية (التربة، المناخ، النبات، الحيوان، التركيبة الجغرافية للبيئة) ثم مجموعة العوامل أو العناصر الخارجية (كالمجتمعات الأخرى التى قد تصبح علي اتصال بالمجتمع) والعناصر أو العوامل الداخلية (التي تتضمن

السـلالة، العواطف، المشاعر، الأيديولوجيات). وقد كان باريتو مهتما أساسا بدراسـة العوامـل الداخلـية، حيث نجده يؤكد ان طبيعة المجتمع – كنسق سـلوكى– تتحدد داخليا بواسطة خصائص أفعال الأفراد الذين ينجزون فعلا فـى إطاره. ولما كان هؤلاء الأفراد لا منطقيين، فإن العوامل غير المنطقية هـى التـى تشغل مكانة جوهرية فى بناء المجتمع. واستنادا إلى ذلك أوقف باريـتو جـزءا كبيرا من كتابه (المقدمة) لتوضيح إن كافة التفسيرات التي حاولت تفسير السلوك الانساني لم تلمس هذه العناصر الجوهرية[٩].

واستنادا إلى ذلك فإن التصنيف الرئيسى للأفعال التي ينبغي أن يأخذ به علم الاجتماع كعمل هو أن يصنف نماذج الفعل إلى نماذج منطقية ونماذج غـير منطقـية. وقـد اعتقد باريتو أن كل الجهود الانسانية لتفسير السلوك الانسـانى قـد سـارت فـى الاتجاه الخطأ. حيث اتجهت معظم التفسيرات الثيولوجـية، والفلسفية، وحتى العلمية إلى تجاهل العناصر غير المنطقية فى السـلوك الانسـانى. ويمكـن أن نجـد أمـثلة علي ذلك فى أعمال أرسطو Aristotle وأفلاطـون Plato بوليـبوس Polybuis، فوستال دي كولانج Fustel do Coulange ، كونت Conte، سبنسر Spencer.

وتشـكل (الرواسـب Residues) العوامل الأساسية للفعل وليست المشتقات Derviations، باعتبارهما العناصر المتغيرة، نقطة البدء الحقيقية لعلـم الاجـتماع التجريبى المنطقى. وتعتبر الرواسب دوائم أو ثوابت غير منطقـية، وهى بطبيعتها تجليات للعواطف. وتتطابق الرواسب عند باريتو– مـن مخـتلف الجوانب– مع ما يصفه شوبنهاور Schopenhauer ونيتشه Nietzsche (بتجلـيات الإرادة). ويعـتقد باريتو أن الرواسب تعتبر القوى الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوازن الاجتماعي، هذه الرواسب تنقسم إلي ستة فئات:

١– رواسب الترابط Residues of Combination.

٢– رواسـب اسـتمرار الـتجمعات Residues of Persistence of Aggregates.

٣- رواســب أظهــار العواطــف من خلال الأفعال الخارجية Residues Manifestation of Sentiments Throught External Acts.

٤- رواسب الألفة Residues of Sociality.

٥- رواسب التكامل الفردى Residues of Individual Integrity.

٦- رواسب الجنس(١٠) Sex Residues.

وينبغي أن لا تقتصر دراسة علم الاجتماع على الرواسب فقط وإنما علــيه أن يــتجاوز ذلــك لدراسة علاقة الرواسب بالمشتقات. هذه المشتقات تتكون من الأساليب التي يبرر بها البشر أفعالهم ويشرحونها. وفي إطار ذلك يؤكد باريتو أن هناك أنواعا عديدة من المشتقات.

١- التأكــيد البسيط Simple Affirmation وهي القضايا المتعلقة بالحقائق الواقعية أو الخيالية.

٢- الســلطة Authority، حيث التفسير الزائف للأحداث من خلال التأكيد علي سلطة الماضي، سلطة العادات والتقاليد، أو سلطة الإرادة الألهية.

٣- الســير حســب المبادئ والعواطف Accord With Sentiments or Principles ، وهــى المشــتقات التــى تحاول طرح تبريرات السلوك مستندة إلي الحقيقة التي تفترض أن هذا السلوك من أجل فائدة الآخرين.

٤- البراهيــن اللفظــية Verbal Proofs، وهــى التى تتكون من استخدام الألفاظ أو المصطلحات المتعلقة بالحقائق، أو الشعارات وما إلي ذلك.

وتتصــل المشــتقات أساســا بمــا يفضل الدارسون فى الغالب تسميته (بالأيديولوجيات) حيث تعتبر هذه الأيديولوجيات تبريرات زائفة للسلوك(١١).

ويتصل بذلك أن على علم الاجتماع أن يبحث فى طبيعة توزيع الرواسب فى المجتمع بما يساعد على خلق حالة من الاستقرار الاجتماعى أو حالة من الــتوازن بيــن الصــفوات (الأســود، الثعالب). هذا إلي جانب دراسة علم الاجتماع لحالات اهتزاز توزيع الرواسب على هذا النحو، بما يفرض اهتزاز الــتوازن واقــبال المجتمع علي ما يمكن أن يسمى بدوره الصفوة. فهو يهتم

بقضـــايا الصفوة بين التوازن والتغير الاجتماعي. وهي موضوعات قدم فيها فلفريدو باريتو اسهامات بارزة وواضحة.

ثانيا: أبعاد المنهج وإجراءاته في علم الاجتماع.

لا تخـــتلف البنية المنهجية للنسق النظرى عند فلفريدو باريتو عنها عند معاصـــريه. وذلـــك باعتبار كونها أنساقا نظرية عايشت الاتجاهات النظرية العامـــة (المثالـــية، النفعية، الوضعية، الامبيريقية)، وهى اتجاهات كانت لها مداخلها المنهجية المحددة. ومن ثم فقد كان منطقيا – أيا كان الانتماء النظرى للنسق النظري– أن تنعكس منهجيات هذه الاتجاهات النظرية العامة بصورة مـــتفاوتة داخـــل الأنساق النظرية للمرحلة الكلاسيكية. وهى الملاحظة التى تجسد نفسها في البنية المنهجية لنظرية باريتو عن المجتمع. إذ يكشف فحص هذه البنية المنهجية عن تميزها بعدة ملامح أساسية.

ويعتـــبر تبنى المدخل المنهجى الذي اتبعته العلوم الطبيعية والاقتصادية هـــو المدخل الملائم لدراسة الحقيقة الاجتماعية. ذلك أن باريتو كان يأمل فى خلـــق علـــم اجتماعى مكمل أساس لدراسات الاقتصاد السياسي. ويتخذ من العلـــوم الطبيعية مثالا له. وفى هذا الصدد نجده يؤكد فى كتابه (المقدمة) أن هدفه الوحيد الذي أصر عليه هو البحث عن فهم الحقيقة التجريبية، وذلك عن طـــريق تطبـــيق المـــناهج التى أتبعت في العلوم الفيزيقية والكيمياء والفلك، والبيلوجـــيا، وغـــيرها، فى إطار العلوم الاجتماعية[١٢]. ذلك يعنى أن هناك مصـــدران رئيســـيان كـــان لهما تأثيرها على البناء المنهجي لباريتو. **الأول** ويتمـــثل فى العلوم الفيزيقية الحديثة التى كانت قد تمكنت فى هذه الفترة من تطوير أساليب واجراءات منهجية دقيقة للغاية. ومن ثم فقد قدمت هذه العلوم الـــنموذج العـــام الـــذي ينبغي احتذاؤه. ويتمثل المصدر **الثاني** فى النظرية الاقتصـــادية التى قدمت مثالا رائدا لعلم يتناول السلوك الانسانى. علم تمكن بـــالفعل من تطوير نظرية مجردة لا تتصل بالظواهر الاجتماعية الواقعية إذا هـــي لـــم تترابط مع بعض العناصر الأخرى المتعلقة بهذه الظواهر. ويمكن

القول بأن الموقف من طبيعة تحليل النظرية الاقتصادية هو الذي شكل نقطة البدء في التحليل العيني الذي قاده باريتو بعد ذلك(١٣).

ذلــك يعني أن وقوع باريتو تحت تأثير هذين المصدرين الفكريين أسسا لديه التزاما بعلم الاجتماع كعلم تجريبى منطقى يستند بالأساس على ملاحظة الحقــائق والتجريــب بشأنها. ومن ثم أن يرفض أي تأمل أو تفكير عقلى أو أخلاقــى يتجاوز الحقائق ذاتها. أو لايصف اطراداتها أو الخصائص المتعلقة بها، باعتباره لا يشكل عنصرا فى علم الاجتماع التجريبى المنطقى. وبعبارة أخــرى، فإن علينا أن نرفض، أي قضايا أو مبادئ مسبقة من أن تتدخل فى الفهــم المتعلق بعلم الاجتماع. فقضايا ومبادئ علم الاجتماع ليست شيئا أكثر مــن وصف الحقائق واطراداتها. وعلى هذا النحو فهى ليست قضايا مطلقة ولكــنها نسبية، وهى أيضا معرضة للتغير بمجرد ظهور حقائق جديدة تشكك فــى دقــتها. ومن ثم ينبغى أن يستبعد من مجال علم الاجتماع مقولات مثل الضرورة Necessity، الحتمية Invitability الصدق المطلق Absolute Truth . وذلــك لأن قضايا العلم ينبغى أن تكون احتمالية(١٤)، وهو ما يعنى ضرورة أن يتبنى علم الاجتماع المنهج التجريبي المنطقى الذي يعتمد أساسا على الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء الأساسية، تلك التي حددهــا جون سيتوارت مل. حيث يتكون العالم التجريبى - فى رأي باريتو - القابل للملاحظة من ظواهر وعلاقات من الممكن إدراكها بالحواس، ويتيسر عادة اخضاعها للقياس(١٥). ومن هذا المنطلق كان نقده للأنساق النظرية التى طورها كل من كونت وهربرت سبنسر، وغيرهما من المفكرين الذين عايشوا هذه المرحلة.

واســتنادا إلى ذلك يرفض باريتو الاستقراء كمنهج يصل من خلاله إلى تطويــر إطاره التصورى لتحليل العنصر غير المنطقى فى السلوك أو الفعل الانســانى. إذ نجــده بعد استعراض مجموعة هائلة من الحالات فى التاريخ الماضــى والحاضر - متخذا موضوع دراسته النماذج العديدة للأيديولوجيات كالمعــتقدات والمذاهــب التي تدفع عادة الفعل البشري إلي أنماط معينة من

السلوك أو الفعل- يصل إلى نتيجة أن كل أنساق المعتقدات غير العلمية هذه، وكل النظريات القائمة من النادر أن تشكل عوامل محددة أو محتمة للفعل أو السلوك، وإنما هي إلى حد كبير تعبر عن عواطف كامنة في العمق. وأن دورها الرئيسي يكمن في تقديم الفهم المنطقي للسلوك بحيث تجعله يبدو كأنه نتيجة منطقية لمجموعة من الأفكار(١٦). ذلك يعني أن الاستقراء ينصب على البحث في الحالات التاريخية فيما يتعلق بالعناصر الكامنة في السلوك البشري، أو ما يسميه باريتو بالرواسب، وليست المشتقات. فما المشتقات سوى تبريرات منطقية للفاعلية الرئيسية لهذه الرواسب، وهو الأمر الذي يلقي الضوء على موقف باريتو من بعض أدوات العلم الاجتماعي الحديث، كالاستبيان، باعتباره وسيلة غير كافية للكشف عن الحقيقة. إذ نجده يؤكد على استحالة استناد أي استنتاج علمي فيما يتعلق بالانسان أو الجماعة أو الفترة التاريخية المحددة، إلى ردود الفعل الكلامية فقط، حيث أن ردود الفعل الكلامية هذه بالنسبة لباريتو تعتبر مجرد مؤشر مضلل للغاية، فيما يتعلق بطبيعة الرواسب الكامنة التي نريد الكشف عنها أو فهمها(١٧).

ذلك يفرض ضرورة الاهتمام بتوضيح وجهة نظر باريتو فيما يتعلق بالحقيقة الاجتماعية التي ينبغي أن تكون موضوعا للاستقراء العملي. حيث نجده في مختلف كتاباته يحاول بدأب تقديم تحديد واضح لمجال الحقيقة العلمية. وفي هذا الصدد نجده لم يستخدم مصطلح (المعطاه المحسوسة Sence Datum) أو أي المصطلحات المتصلة بها، ولكن كانت الخبرة أو التجربة هي مصطلحه المفضل. وهو المصطلح الذي يشير بوضوح إلى استقلال العواطف الذاتية للملاحظ وإمكانية التحقق منها. ومن ثم فقد تمت معادلة التجربة بالملاحظة. التى عادة ما يشار إليها باعتبارها تساعد البشر على الحكم بين الآراء المختلفة، ونستنتج من ذلك تميز تصور باريتو بالشمول. هذه الملاحظة قد تتضمن في الحقيقة أي قضية يمكن التحقق منها وتتعلق بشئ أو واقعة خارجة عن الباحث الملاحظ ومستقلة عنه، بمعني أنها:

(ا) فــي وجودهــا وخصائصها ناتجة عن العواطف الخاصة، عن الحب، أو الكراهية، فهي معطاه مفروضة Given علي هذا النحو.

(ب) أنه كتأكيد لهذا الاستقلال فإنه لأي عدد من الباحثين يدرسون نفس الشئ أو الواقعة أن يصلوا إلي اتفاق فيما يتعلق بالأسس الرئيسية لتوصيفاتهم لهذه الحقيقة(١٨).

وفــي نطــاق هذه الحقيقة الواقعية، أو التعبير اللغوي عنها، يمكننا التميــيز بيــن مســتويين أو نمطين من السلوك أو الفعل. الفعل أو السلوك المنطقي، والفعل أو السلوك غير المنطقي. ويحدد باريتو الأولى بأنها الأفعال أو الســلوكيات التــي تستخدم الوسائل الملائمة لتحقيق الغايات والتى تصل منطقــيا بين الوسائل والغايات، بحيث لا يكون هذا الوصل لمنطقي للوسائل بالغايــات من وجهة نظر الانسان القائم بإنجاز السلوك أو الفعل، ولكن أيضا مــن وجهــة نظر الأشخاص ذوى المعرفة العلمية الواسعة. ومن ثم تصبح الأفعال أو السلوكيات المنطقية منطقية من وجهة النظر الذاتية والموضوعية معــا. أما الأفعال غير المنطقية فهى ببساطة الأفعال التي لا تدخل في تحديد طبيعة الفعل المنطقي فهي فئة راسبة Residual Category(١٩).

ذلك يعنى أن هناك تناقضا بين نمطى السلوك أو الفعل، أو أن هناك مســتويين. الأفعال المنطقية التى تعتبر فى أساسها نتيجة لعملية برهنة، أما الأفعــال غير المنطقية فتنبثق أساسا عن حالة عقلية محددة، عن العاطفة أو اللاشــعور، الخــ ومن ثم يصبح على علم النفس أن يهتم بمثل هذه الحالة العقلية والأفعال أو السلوكيات الناتجة عنها(٢٠). ترتيبا على ذلك نجد أن هناك مجاليــن أساســيين للسلوك الانسانى، كل منهما منفصل عن الآخر. المجال الذي يقع فى نطاق المنطق أو العلم من ناحية، ثم مجال العواطف من ناحية أخــرى. وإذا كان العلم يتضمن المنطق، والملاحظة والتجربة الموضوعية، والصــدق المســتند إلي هذه العمليات، فإن المجال الآخر هو الفهم التجريبى غير المنطقى experimental–Nonlogical وقد اختار باريتو العلم، غير أنه رفض كلية إمكانية أن يغني العلم عن المجال الآخر. حيث تعتبر العاطفة

فـــى الحقيقة هى القوة الرئيسية المسيطرة فى المجتمع، أو هى العامل المحتم للســلوك البشـــري. واستنادا إلى ذلك يميز باريتو بدقة بين القضايا العلمية والقضايا غير العلمية. وفى هذا الصدد نجده يعتبر التجربة الموضوعية هى المحــك الوحيد لبناء النظرية العامة، التى يمكن أن نصل إليها استقرائيا عن طريق وصف العلاقات بين الحقائق. ومن ثم فالنظريات العلمية هى نظريات منطقــية – تجريبـــية. غير أنه يؤكد أن النظريات الأخرى غير المنطقية- التجريبــية قــد تضيف إلى التجربة وتحاول السيطرة على الحقائق. ويلتزم باريــتو بوجهـــة الــنظر المنهجية التى تنظر إلى القوانين باعتبارها وسائل توجيهـــية أساسا، وليست بالضرورة حاكمة لتفاعل الحقائق الواقعية. إذا أنه حيــنما تتضح العلاقات والاطرادات بين الحقائق، فإن القانون يستخدم عادة للتعبــير عن هذه العناصر، فالقانون ليس قوة تخضع لها الحقائق. ثم يصف أســلوب العالم فى الوصول إلى القانون فيؤكد أن العالم يختار ظواهر معينة تصـــلح للملاحظـــة، ثم ينظمها ويصنفها حسب إطار مختار بصورة إرادية، بحيــث تبدو الظواهر وكأنها خاضعة لقانون معين. واستنادا إلى ذلك فليست هـــناك قوانيـــن ضـــرورية. ولكن بدلا من ذلك تتفاعل الظواهر وكأن هذه القوانيـــن موجـــودة. ويحـــدد العالم درجة احتمالية أن تتبع الظواهر موضع الاهتمام نمطا محددا من التفاعل. وعلى هذا النحو تصبح النسبية الاجتماعية بالنسبة لباريتو كما هى بالنسبة لفيانجر Vaihinger وماخ Mach وبانكارية إلي آخر هؤلاء، افتراضا أساسيا(٢١).

وتـــنعكس هذه النظرة على طبيعة القانون ذاته، حيث يضمن عنصر الضـــرورة بالنســـبة للقانون العلمى فى بنيته المنطقية فقط، وعلى هذا النحو فالقانون ليس له استثناءات، أما ما نسميه فى العادة استثناءا ليس فى الحقيقة ســوي نتـــيجة للفاعلـــية أو التأثير الأفوي لقانون آخر غير القانون موضع الاهـــتمام، وبهذا المعنى تصبح لكل القوانين العلمية استثناءات. غير أن هذه الضرورة المنطقية، والتى يمكن أن نطلق عليها (الحتمية المنطقية Logical Determinism) ينبغي أن لا تنقل- وفقا لهذا الاعتبار- إلي مجال الظواهر

الواقعـــية، فنســـق الـــنظرية المغلقة من الناحية المنطقية ينبغي أن لا يتحول تعســـفيا ليصـــبح نسقا أمبيريقيا مغلقا. إذ أنه على العكس من ذلك، يمكن أن تقـــود الـــنظرية العلمية فى حالة تطبيقها امبيريقيا إلي قدر من الاحتماليات وليست الضرورات الملزمة[٢٢].

ويحـــاول بيـــترم سروكن أن يحدد ملامح منهجية باريتو بتأكيده أنه تحـــت تأثـــير فنيارســـكى Winiarsky وآخرين غيره من ممثلى الميكانيكا الاجتماعية نجد أن باريتو متبعا في ذلك جوسن Gossen، والراس Walras، جـــيفونز Jevons، كورنو Cournot، ادجوورث Edgeworth، قد قدم نظرية فى الميكانيكا العقلانية. ثم حاول أن يحدد اتجاهات أو منهجية البحث فى هذا الاطار بتأكيده على ضرورة دراسة نوعين من الحركات، الحركات الواقعـــية Real والمفضلة Vertual. وتشكل الأولى تلك الحركات التى تقع واقعـــيا، أمـــا الثانية فهى التى ينبعى اتباعها فى ظروف معينة، وباعتبارها متضـــمنة فـــى الفروض فإنها سوف تساعدنا على فهم الخصائص الواقعية. وينبغـــى أن تكـــون دراسة تلك الحركات الواقعية وصفية خالصة، في حين ينبغـــى أن تكـــون دراسة الحركات المفضلة نظريا أساسا. الأولى قد تكون تركيبـــية، أما الثانية فهى تحليلية أساسا. وتنتج عن ذلك الحاجة الملحة لعزل الأجـــزاء العديدة للظاهرة بدرجة أكثر أو أقل ما ودراسة كل منهما منفصلة علـــى أمـــل أن يعـــاد توحيدها ثانية، للوصول إلي تصور تركيبي للظاهرة الواقعية[٢٣].

وإذا كـــان باريتو قد أكد على ضرورة التركيب للظاهرة كمدخل إلى فهمهـــا، فإنـــنا نجده- بهدف طرح تصور بنائى متكامل للظاهرة التى نريد دراســـتها- يؤكد على ضرورة اهتمام علم الاجتماع بمفهم العلاقات الوظيفية بيـــن الظواهر الاجتماعية، بدلا من الاهتمام بعلاقة سببية ذات اتجاه واحد. وفـــي هـــذا الصـــدد ينبغى تجاوز مفاهيم (كالمتغير Variable) (والوظيفة Function). وبأســـلوب منهجى خالص، فإنه من الضروري أن نعزل فى البداية متغيرات محددا يوجد دائما كمكون في مجموعة الظواهر الاجتماعية

ثـم نـدرس علاقته الوظيفية بالظواهر الأخرى ب، ج، د، هـ. وينبغى أن نفعـل نفـس الشئ فيما يتعلق بالمتغيرات الأخرى ب، ج، د، هـ. وحينما ننتهى من هذه المرحلة، ينبغي تقديم مجموعة القضايا التي تم الحصول عليها نتيجة لدراسة العلاقات الوظيفية بين المتغيرات، وذلك لدراسة مجموعة معقدة مـن الظواهر الاجتماعية المتساندة أ، ب، ج، د. وفى هذا الاطار ينبغى أن يتركز انتباهنا خلال هذه المرحلة التركيبية على العلاقات الاجتماعية المتبادلة والدائمـة نسبيا. إذ علينا أن نلاحظ تغيراتها، فى الزمان والمكان. ثم طبيعة العلاقـات والارتـباطات المتساندة بين هذه المتغيرات. علينا أيضا أن نفهم الاطـرادات المـتكررة في تنوعاتها وتغيراتها المعقدة، بحيث نصفها كيفيا، ونقيسـها كميا. أما فيما يتعلق بالحوادث والوقائع الفريدة، أو غير المنتظمة وغـير المتكررة، أو التي تقع بحكم الصدفة العابرة، فإن علينا اغفالها على الأقل لمدة من الزمن، حتى تتوفر لدينا صيغة تتعلق بمجموعة من الاطرادات الأكـثر أهمـية، ذات مؤشرات كمية. وبهذه الطريقة فإننا سوف نتمكن من تحقـيق سلسلة من الاقترابات المتعاقبة نحو الحقيقة الواقعية المعقدة. وعلى نقـيض مداخـل المنظريـن الذين يميلون إلى التبسيط، فإن هذه الاقترابات المتتالـية سـوف تكون أقرب ما يكون إلى الدقة، هذا إلى جانب أنها سوف تخـتلف عن النظريات التصويرية (الوصفية) فى أنها سوف تتيح لنا تحديد العلاقـات المتبادلة بين الظواهر، واطراداتها، ثم المؤشرات الدالة على هذه الـتفاعلات التـى تصف إلى حد كبير العمليات الاجتماعية الأكثر أساسية. وعلـي هـذا الـنحو يمكن إيجاز الملامح العامة لمنهجية باريتو علي النحو التالي:

(أ) تصور الاعتماد المتبادل بدلا من الاعتماد من جانب واحد.

(ب) تصور العلاقة الوظيفية المتبادلة بدلا من علاقة السبب بالنتيجة.

(ج) دراسـة العناصـر الدائمة للنسق الاجتماعي بدلا من دراسة المكونات الفردية، والعرضية غير المتكررة.

(د) دراسة الاطرادات والارتباطات المتعلقة بتغير هذه العناصر الدائمة (في الزمان والمكان).

القـياس الكمى للاطرادات، من حيث تغيراتها وترابطاتها بدلا من الوصف الكيفي الخالص.

(و) أنـنا إذا اتبعـنا هـذا المـنهج فسوف نستطيع الحصول على مجموعة الصياغات أو المعادلات Formulas التي سوف تمثل بالنسبة لنا اقترابات أو تناولات متتابعة للحقيقة الواقعية المعقدة للغاية من حيث ديناميانها الداخلية.

ومن الضروري أن ندرك أن هذه القضايا المنهجية تتفق من الناحية العملـية مـع تصـورات كـل من بوانكارية H. Poincare، وماخ، ودهم Duhem، وكارل بيرسون K. Person، وكثير من علماء المنهج فى تاريخ العلـم. هذا إلى جانب أنها تتفق أيضا مع الاتجاهات الحديثة لتفسير العلاقة السببية والحتمية وغير ذلك فى العلوم الطبيعية. حيث بدأت هذه المفاهيم تفقد طبيعـتها الميتافيزيقـية المـتعلقة (بالتحتـيم Inevitableness والضرورة Necessity) بحيـث تحولت إلى نظريات عن العلاقات الوظيفية تستند إلى المـبادئ الاحتمالية. ويتفق مع مبادئ باريتو أيضا ذلك التطور الحديث الذي حـدث للدراسـات الكيفـية للظواهر الاجتماعية، وتلك الخاصة بالاحصاء الرياضـى، ونظـرية الارتباط الرياضى (التى تتضمن الارتباط الجزئي)، والميل إلي الاكتمال في النظريات الرياضية للمتغيرات[٢٤].

ذلـك يعنـى أننا إذا حللنا البناء المنهجى الذي أسسه فلفريدو باريتو باعتباره المنهجية التي ينبغي أن تكون لعلم الاجتماع، فسوف نجد أنه يتميز بخاصيتين:

١- أنها منهجية تتصل إلى حد كبير من حيث المدخل المنهجى، أو من حيث طـريقة التحلـيل والتركيب بالمنهجية المتبعة في العلوم الطبيعية والتي رضيت بها الوضعية منهجا لعلم الاجتماع.

٢- أنـه برغم هذه الطبيعة الوضعية الصارخة، نجد أن لدى باريتو تأثيرات مثالـية، كاعتبار الرواسب الكامنة المادة الحقيقية التي ينبغي أن يتناولها

علــم الاجــتماع دون المشتقات. وفي ذلك خلاف مع الموقف الوضعي وأيضا الموقف الذي ترضى به العلوم الطبيعية التي تكتفي بما هو ظاهر بغض النظر عن ماهو كامن.

٣- أننا نلاحظ أن باريتو قد طور منهجية ذات طبيعة متطورة إلى حد كبير، كفكــرة القــول بالطبيعة المعية لجمع من المتغيرات في صياغة التفاعل الاجتماعــي، هــذا إلى جانب معرفة تأثير كل من متغيرات الواقعة كل علــى حــدة لمعــرفة تأثيرها النسبي، إلي جانب التبشير بعلم الاجتماع الرياضي، وغير ذلك من التطويرات.

غــير أن القضــية الرئيسية التي نلاحظها في هذا الصدد تتمثل في أن باريــتو- ككــل معاصريه- لم يطور منهجية ذات طبيعة وضعية أو مثالية خالصــة. حيــث قامت البناءات المنهجية لهذه المرحلة باعتبارها محاولات تركيبية لعناصر منهجية تنتمي لأنساق نظرية متباينة إلي حد كبير.

ثالثا: التفسير المنهجي، مبادئه الرئيسية.

فــي أعقــاب تحديدنــا لهوية علم الاجتماع عند باريتو، وأيضا لطبيعة الادراك المنهجي الذي اتبعه في النظر إلى حقائق الواقع الاجتماعي وتناولها بالبحث والدراسة، فإننا سوف نحاول في هذه الفقرة تحديد مجموعة المبادئ المنهجــية التي شكلت العمود الفقري لنظرية باريتو عن الانسان والمجتمع. غــير أنــنا قبل أن نشرع في سرد هذه المبادئ نري ضرورة تصنيفها إلى نوعين أو طرازين من المبادئ، مجموعة المبادئ المنهجية وهي التي تشكل الموجهــات العامة لنظرة الباحث إلى الحقيقة موضع الاهتمام والدراسة. ثم مجموعــة المــبادئ العينية التي تتصل بطبيعة العناصر المكونة للحقيقية أو بطبــيعة العلاقــة بين هذه العناصر، وفيما يلي استعراض متتابع لمجموعة المبادئ المنهجية والعينية هذه.

١- يعتبر رفض التفسير الأحادي هو البعد المنهجي الأول هذا الصدد، حيث يــرفض فلفــريدو باريتو كل صور التفسير الاجتماعي التي تستند في

رؤيتها للواقع الاجتماعي بالنظر إلى عامل واحد، وهو نمط التفسير الذي يختزل الحياة الاجتماعية إلي عوامل أو أسباب بعينها[٢٥].

ويعتـــبر نقـــد مفهوم السببية الأحادية الاتجاه أحد الأجزاء الهامة فى منهجـــية باريتو الموجهة أساسا لدراسة الظواهر الاجتماعية. حيث يفترض، مفهوم السبب والنتيجة علاقة اعتمادية من إتجاه واحد بين ظاهرتين أو أكثر. ذلـــك أن مـــثل هـــذه العلاقة ليست لها وجود واقعى فيما يتعلق بالعلاقة بين الظواهـــر الاجتماعية، حيث أن هذه العلاقات متساندة كقاعدة أساسية. وعلى ســـبيل المثال إذا أثرت خصائص أعضاء المجتمع على تنظيمه الاجتماعى، فإن التنظيم الاجتماعى يؤثر بدوره على خصائص الأفراد. ولهذا السبب فإن تصـــور العلاقـــة السببية الأحادية الإتجاه لا يلائم الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعـــية. وحيـــنما يطـــبق هذا التصور فإنه يبرز النظرية التبسيطية أو الـــنظرية التصـــويرية. فـــإذا أخذنـــا من المجتمع مثالا فإننا نجد أن طبيعته وتوازنـــه يتكون من أو يعتمد على البيئة الجغرافية (أ) والموقف الاقتصادي (ب) والشكل السياسى (ج) والدين (د) والأخلاق والمعرفة (هـــ)، وغير ذلكم من المتغيرات. حيث تؤثر كل من هذه المتغيرات فى الأخرى وتعتمد عليها. ومن خلال تفاعلها فإنها تغير على الدوام من طبيعة المجتمع وتوازنه. ومن ثم يتواجد لدينا اعتمادات متبادلا بين هذه المتغيرات، وتوازنا ديناميا للمجتمع الذي يمكن أن يمر من حالة إلي أخرى علي النحو التالي:

أ، ب، ج، د، هـــ

أ، ب، ج، د، هــَ

أ، ب، ج، د، هــّ

واستمرارا إلي ما لا نهاية.

وعلـــى ذلـــك فالمنظر (الذي يميل الى التبسيط المخل للتفاعل) يأخذ عنصـــرا مـــثل (أ) معتبرا أياه سببا، ثم ينظر إلى ب، ج، د، هـــ باعتبارها نـــتائج لهـــذا السبب، فى حين يذهب منظر آخر يميل إلى التبسيط أيضا إلى اعتـــبار (ب) أو (ج) أو (د) ســـببا، ثم يحاول النظر إلي المتغيرات الأخرى

باعتـــبارها نتائج. وعلى هذا النحو تكون لدينا نظريات كثيرة ومتناقضة تقدم لــنا الــنموذج التبسيطى للنظرية الاجتماعية (حيث كلها تعتبر نظريات من جانــب واحــد، تحــاول أن تفسر الحياة الاجتماعية ككل من خلال العامل الجغرافية، السلالى، الاقتصادي، السياسى، او أي عامل آخر). وكنتيجة لهذه الممارســة، تصــبح الــنظرية ذات طبــيعة أحادية، فتعميماتها غير فعال، وتشخيصـــها زائف، وقضاياها لا قيمة لها. هذا بخلاف الصراعات التى لا قــيمة لها بين هذه النظريات الأحادية أو التبسيطية، بسبب دفاع كل منها عن مواقعها.

أما ما نعنيه بزيف النظرية التصويرية Cinematographic فنعنى بها أن عالم الاجتماع يلاحظ ويصف الانتقال من (أ) إلى (أ) إلى (أ)، وانتقال (ب) إلى (ب) وأيضا (ج) إلى (ج) إلى (ج) مثلما نرى صورة تلو أخرى في سلســلة من الصور الدرامية. وقد وصف هذا الانتقال بواسطة هذه النظريات التصـــويرية تحت أسم التطور، فهم بهذا الوصف يقصرون مهمتهم على هذا الاطـــار ويعتقدون أن كل شئ قد اكتمل في طريق الدراسة العلمية. ويكمن الـــزيف فـــى هذه النظريات- حتى ولو كانت أطرها التصورية دقيقة (وهى مســألة نادرة الحدوث)- فى سطحيتها. فهم لا يستطيعون بها أن يقدموا أي تعميم أبعد من الوصف التاريخي والامبيريقي الخالص.

هـــذا إلى جانب عجزهم عن تقديم تحديد للاطرادات التي قد تحدث، إضافة إلي عدم تقديم تحليل للظواهر موضع الاهتمام(٢٦).

٢- وتعتبر علاقة الأفراد بالمجتمع المبدأ المنهجى الثانى الذي يحاول باريتو مـــن خلاله إدراك التفاعل الاجتماعى. إذ تعتبر هذه القضية من القضايا الرئيسية التى أثارت جدلا خلافيا فى مرحلة الأنساق النظرية الكلاسيكية. وإذا كانت الدوركيمية قد اتخذت موقف أولوية المجتمع على الفرد، بينما رضـــى مـــاكس فيبر وكارل ماركس بموقف وسط متأرجح، فإننا على خـــلاف ذلـــك نجـــد فلفريدو باريتو يحسم القضية على نقيض الموقف الدوركيمـــي. ومـــن ثـــم فنظريـــته عن المجتمع هي في النهاية نظرية

سـيكولوجية. حيث يتحدد التوازن الاجتماعى عند باريتو بواسطة توزع الخصائص السيكولوجية بين الأفراد أو بصورة أكثر تحديدا يعتمد توازن المجـتمع على طبيعة توزيع الأفراد الذين يمتلكون هذه الخصائص[٢٧]. فمثلا نجد أن الراسب الجنسي يكمن عند اتحادات الجنس أو الشوق إلى الـتجمع، ولكنـنا نجـد أن له فاعليـته أيضا فى بعض الحالات العقلية الرافضـة للجـنس[٢٨]. ويضيع الباحث وقت إذا حاول تفسير تحريمات اجتماعـية معيـنة أو ممارسـات دينـية خاصة بالنظر إلى الظروف الاجتماعية والثقافية الأخرى. وفى هذا الصدد فإن على الباحث أن يعلم أن الرواسـب فعالة على مستوي الحديث أو الكتابة، ولها وجودها أيضا وفاعليـتها فـى الأدب والتراث. وحينما يتحدث المتحدثون عن التراث اللاأخلاقـى، فإن ذلك يعتبر في غالب الأحيان نوعا من النفاق[٢٩]. ذلك يعنـى أن تفسـير السلوك والتفاعل الاجتماعى ليس بالنظر إلى الحقائق الاجتماعـية والثقافية، فالحقائق الاجتماعية ليست مفسرة لذاتها على ما يذهـب دوركـيم وإنما تفسرها الرواسب الكامنة في عمق الأفراد الذين يشكلون بناء المجتمع.

٣- ويعتبر الموقف من الحقيقة الاجتماعية هو المبدأ المنهجى الثالث فى هذا الصـدد، وهى مسألة ينبغى التأكيد الواضح عليها على ما يذهب باريتو، فقـد لا يتحد نفع فكرة معينة مع صدقها فى المجال الاجتماعى. فالمنفعة والحقيقة الصادقة ينفصل كل منهما عن الآخر واقعيا. ومن ثم نجده يذكر قارئه باستمرار بأنه إذا برهن على عبث فكرة معينة، فإن ذلك لا يعنى أنهـا ضارة بالنسبة لأي شخص. وعلى العكس فإنه إذا برهن على نفع فكـرة معينة، فإن على القارئ أن لا يفترض أنها صادقة تجريبيا. فمن الواضـح أن هناك أفكارا كثيرة منتشرة بين الناس، ومع ذلك فهى زائفة تمامـا، أو أن صـدقها مجهول نسبيا. فهناك قضايا حاول باريتو التأكيد علـي أهميتها بالنسبة له مثل من الذي يعتنق مذاهب معينة ولماذا؟ وما

هـي نـتائج الاعتقاد في معتقدات مهينة ولصالح من؟ ثم يؤكد أنه من الضروري الإجابة علي هذه التساؤلات من خلال علم اجتماع علمي[٣٠].

إذا فعلى نقيض هؤلاء الذين يعتقدون أن كل ما هو حقيقي نافع، في حين أن كل ما و غيبي ضار، نجد أن باريتو يؤكد أن الموقف يختلف كثيرا عن ذلك. فهناك كثير من التحيزات (المشتقات) التي ساعدت في الحفاظ على تكامل النسق الاجتماعي، في حين يسرت ذلك أيضا (الأساطير) والبدع، والمعتقدات القديمة، والغيبيات التي تخلع مسحة من الجمال على الواقع، هذا إلى جانب مشاعر الحماس الملهمة. كل هذه المشتقات قد تكون مفيدة في بعض الأحيان للمجتمع، غير أننا نجد من ناحية أن الحقيقة العارية قد تصبح مدمرة للمجتمع. وفي إطار ذلك يصل باريتو إلى نتائج قريبة إلي حد كبير من تلك النتائج التي وصل إليها ميكيافيلي وسوريل G. Sorel، وفريزر Frazer، ليبون G. Lebon، وآخرين. حيث تعتبر الأوهام والغيبيات- حسب هذا المنطق- ذات أهمية حيوية للمجتمع بنفس قدر أهمية الصدق المنطقي التجريبي[٣١].

واستنادا إلى هذه المقارنة بين الحقيقة والمنفعة نجد أن باريتو يميز بين نوعين من النظريات. النظريات الزائفة علميا، والنظريات التي تتجاوز التجربة، وفيما يتعلق بالنمط الأول من النظريات يؤكد باريتو أننا نتعامل مع نظريات تبدو وكأنها تحتل مكانة علمية، غير أنها قد تفشل بوضوح في الصعود أمام المعايير العلمية. هذه النظريات ترتبط في النهاية بالحاجات والدوافع والملكات البيلوجية، ويمكن تفسيرها مباشرة بالنظر إلى الرواسب الكامنة وراءها. ومن ثم فهذه النظريات مجرد تبريرات عقلانية او رشيدة. أما فيما يتعلق بالنظريات التي تتجاوز الخبرة كالنظريات الدينية على سبيل المثال، فإننا نجد أن باريتو يقدم برهنة مختلفة، فهذه النظريات لا تدعى لنفسها المنطقية أو المظهر العلمي، ومن ثم يصبح جهدا عديم القيمة إذا حاولنا توضيح مدى ابتعادها عن المعايير العلمية. هذه النظريات تمثل في الحقيقة قيما ثقافية، أو هي تشكل البعد الثقافي في السلوك أو الفعل الانساني،

ومــن ثم فهى تمثل اتجاهات قيمية. وحينما يؤكد باريتو أن الرواسب تكشف عن نفسها فى النظريات الزائفة علميا، فإن ذلك يعنى أن وجود هذه النظريات يعتبر مؤشرا على الرواسب، ودلالة على قدرتها على الخداع. غير أنه حينما يــتحدث عن تجلى الرواسب فى النظريات التى تتجاوز التجربة ج فيبدو أنه يعني أنها تتجلي أو تعبر عن نفسها في السلوك الطقوسي الرمزي(٣٢).

ذلــك يعنى أنه إذا نظر ماركس إلى نفع الحقيقة وصدقها بالنظر إلى الــبعد الطبقــى، وإذا أتحد النفع مع الحقيقة عند دوركيم بالنظر إلى الحقائق الاجتماعــية فــي إطار السياق الاجتماعي، فإننا نجد أن الأمر مختلف وأن التأكــيد علــى نفع نظرية أو أخرى، أو صدق نظرية أو أخرى علميا، إنما يعــتمد بالأســاس على الرواسب البيلوجية الكامنة فى عمق الذات الفردية. والتى بالنظر إليها يتحدد المعنى الرئيسي لهذه النظريات، وهو موقف يرتد به باريتو إلي نوع من الحتمية البيلوجية.

ذلــك يعنى أن الصدق التجريبى للنظرية ونفعها الاجتماعى مسألتان مختلفــتان فالــنظرية الصــادقة تجريبيا قد لا تكون فعالة للمجتمع أو تدعم تفاعلــه. وقد تكون النظرية صادقة تجريبيا إذا أكدت التجربة ذلك. لكنها قد تكون فى نفس الوقت ضارة اجتماعيان أو على عكس ما تذهب التجربة لكنها ذات فائدة اجتماعية. وعلى هذا النحو فتقدير النفع الاجتماعي ينبغى أن يكون منفصــلا عــن البحــث عن المكانة المنطقية للنظريات أو الإدراكات الذاتية للفاعلين الأفراد(٣٣).

٤- وتعتــبر الــتفرقة بيــن السلوك أو الفعل المنطقي وغير المنطقى المبدأ المنهجــى الرابع فى هذا الصدد. حيث يكون الفعل منطقيا إذا استطاع أن يحقــق غايــة بطــريقة موضــوعية، وإذا كانــت الوسائل المتبعة تتفق موضوعيا مع هذه الغاية فى إطار أفضل معرفة متاحة. أما الأفعال التى تخــرج عن هذا النطاق فيعتبرها باريتو جميعا أفعالا غير منطقية، (على أن ذلك لا يعنى انها أفعال مخالفة أو مضادة للمنطق)، واستنادا إلى ذلك فلنا أن نتوقع أن تكون الأفعال المنطقية نادرة إلي حد بعيد، حيث لا نجد

فـــى كـــتابة (المقدمة) سوي أمثلة قليلة جدا لهذا الأفعال، حيث نجد أمثلة لذلـــك فـــى صـــياغة النظريات العلمية أو السلوك الاقتصادي، وسلوك المحاميـــن. وهـــو يعـــتقد أيضا أن دور القاضى ذاته يعتبر سلوكا غير منطقيا، والسبب فى ذلك هو أن دور القاضى ينطوى على أمور تتجاوز مجرد التطبيق المنطقى للقواعد القانونية المجردة على الحالات الملموسة. ويذهـــب باريـــتو فـــى هذا الصدد إلى أن أحكام القضاء تكشف بدرجة ملحوظـــة عـــن عواطـــف رجـــال القضاء، بل أن الاحتكام إلى القانون المكـــتوب يعـــد بمـــثابة تفسير بعدي لقرار أو حكم أمكن اتخاذه بأسلوب آخـــر[٣٤].

ويرتبط السلوك غير المنطقى بالرواسب والمشتقات. وهذان الأخيران يعـــدان مظهران للعواطف غير المتناهية، والتى تشكل حالات نفسية بيلوجية فـــى المحـــل الأول. وعلى الرغم من أن باريتو قد اعترف بأنه من العسير الـــتعرف علـــى هذه الحالات على نحو مباشر، إلا أنه قد كشف عن الطبيعة المميزة لمظاهرها، تلك الطبيعة التى تتجلى في الرواسب والمشتقات والسلوك الانســـانى. وهكذا يكون من الواضح أن باريتو قد أعتقد أن العواطف بمثابة غرائـــز أو ميول انسانية فطرية... وهو يري من ناحية أخرى أن الرواسب مرتبطة بالظروف التى تعيشها الكائنات الانسانية. وهو يعنى بذلك أن الأفعال التـــى تتبدى من خلالها تعمل على تدعيم هذه العواطف، بل أنها تثيرها عند الأفـــراد الذين لا تتحقق لديهم. كما أن العواطف يتحقق وجودها عن طريق استمرار الجماعات ودوامها، ومن ثم تساعد هذه الجماعات على البقاء[٣٥].

والحـــق أن التفرقة بين الأفعال المنطقية وغير المنطقية شكل مجالا لاهتمام كثير من مفكري هذه المرحلة. وبغض النظر عن الموقف الماركسى المعقـــد فـــى هذا الصدد، نجد أن دوركيم رأي أن المجتمع أو الآخر العام، يعتـــبر معيارا لقياس منطقية الأفعال أو لا منطقيتها. هذا فى حين أن فيبر قد مـــيز بيـــن الأفعـــال تمييزا يقترب به كثيرا من وجهة نظر باريتو فى هذا الصـــدد. حيـــث الفـــل العقلاني عند فيبر يناظر الفعل المنطقي عند باريتو،

وحيث الفعل العاطفى عند فيبر يناظر الفعل اللامنطقى عند باريتو، هذا إلى جانب أن الأفعال العاطفية عند فيبر وغير المنطقية عند باريتو تتصل بالعواطف الأسلسية للجماعة أو الفرد كما عند فيبر أو بالرواسب ذات الطبيعة الدائمة عند باريتو.

٥- وتشكل مكونات الوجود الاجتماعى المبدأ المنهجى الخامس عند باريتو. وإلى جانب أن هذه المكونات مسئولة عن تخلق هذا الوجود فهى أيضا مسئولة عن تشكلاته العديدة. فهو يذهب إلى أن الأشكال الواقعية للنسق الاجتماعى كثيرة ومتعددة. وحينئذ فإن علينا أن نتساءل عن ما هى العوامل المسئولة عن أشكال محددة؟ وللإجابة على ذلك يؤكد باريتو أن شكل المجتمع تحدده كل العناصر التى أثرت فيه. وبالتالى يكون لهذا الشكل – الذي أتخذه المجتمع- تأثير على هذه العناصر. هذا ويمكن تصنيف هذه العناصر أو العوامل إلي ثلاثة فئات.

(أ) ظروف التربة، والمناخ، النبات، والحيوان. هذا بالإضافة إلي الظروف الجيولوجية، وغير ذلك من الظروف.

(ب) العناصر أو الظروف الأخري الخارجة عن بنية مجتمع معين فى زمان بعينه. وذلك مثل المجتمعات الاخري التى توجد خارج مجتمع بذاته وأيضا نتائج المراحل السابقة تاريخيا علي هذه المرحلة التي يعيشها المجتمع.

(ج) العناصر الداخلية بالنسبة للنسق الاجتماعى. كالسلالة ثم طبيعة الرواسب أو المشاعر والمصالح، والأيديولوجيات والخصائص الأخري للذوات الفردية التي تشكل النسق الاجتماعي.

ذلك يعنى أن باريتو يطرح تصورا تعدديا لمكونات النسق الاجتماعى، حيث تستند هذه المكونات- كقاعدة أساسية – إلى بعضها البعض. ومن ثم فلكى نفهم شكلا اجتماعيا معينا. فإنه يصبح من الضروري معرفة العناصر العديدة المشكلة له كميا، وأيضا تأثيرها، وترابطاتها وعلاقاتها، ولسوء الحظ، فإن هذه المعرفة ليست متوفرة. ومن أجل أن

توفرها فإن علينا تبسيط الموقف، بحيث نتناول أكثر هذه العناصر أهمية ونغفل ولو إلى حين العناصر الأقل أهمية. وحينما تتم دراسة هذه العناصر الهامة وترابطاتها أو علاقاتها بعمق أو بصورة كمية، فإن التأليف السوسيولوجى المكتمل أو الناضج سوف يصبح ممكنا. وحتى يتحقق ذلك، فإن علينا أن نقنع أنفسنا بالدراسة المبسطة للنسق الاجتماعي، وللعوامل الهامة التي تتحكم في توازنه[٣٦].

وتطبيقا لذلك نجد أن باريتو يختار لنفسه الدراسة المتعمقة لأكثر العناصر أهمية في تشكيل النسق الاجتماعي أو صياغة توازنه، هذه العناصر هي:

(أ) الرواسب وهى التى تذكرنا بالميول الوراثية عند البورت، والمركبات أو العقد عند المحللين النفسيين.

(ب) المشتقات هي التي تتضمن الأيديولوجيات وردود الفعل الكلامية.

(ج) العوامل الاقتصادية.

(د) تباين الكائنات البشرية والجماعات الاجتماعية.

(ه) الحراك الاجتماعي ودورة الصفوة.

ومن غير الصحيح أن نعتقد أن باريتو يري أن هذه العناصر تحتوي على كل العوامل الهامة المسئولة عن تشكيل النسق الاجتماعى. فهناك عوامل أخرى كثيرة ذات أهمية. غير أن باريتو لم يدرسها بسبب أن مجرد دراسة العوامل أو العناصر السابقة يعتبر فى حد ذاته جهدا صعبا ومعقدا للغاية. حيث يمكن أن يكمل علماء اجتماع آخرون دراسة العوامل الأخرى دراسة كمية دقيقة[٣٧].

٦- وتعتبر النظرة إلى علاقة الحاضر بالماضى أحد المبادئ المنهجية الهامة في النسق النظري لباريتو. فالتاريخ وأن تغيرت مظاهره الخارجية، إلا أن هناك ثبات مؤكد فيما يتعلق بالعناصر الجوهرية التي تدفع حركته. ومعنى ذلك أن تفسير الماضي من خلال الحاضر هو أفضل من تفسير الحاضر علي

ضـــوء الماضي، وهو مبدأ منهجي تغفله مناهج البحث في علم الاجتماع[٣٨]. ثـــم يذهب إلى تأكيد برهنته بتأكيده قول اقليدس Ecclesiates (أنه لا جديد تحـــت الشـــمس)، فلـــيس هناك تغيرات جوهرية في التاريخ. ويقصد بكلمة جوهري هنا نسبة البشر الذي يعتقدون أو مازالوا مستمرين في الاعتقاد فيما هـــو لا منطقـــي. إذ يكتب مؤكدا برغم أنه ليست لدينا إحصاءات دقيقة لكي نحدد العدد الدقيق من هؤلاء البشر، ومن ثم لكي نحدد مدى غير نسبتهم إلى الســـكان ككل فإنه من المؤكد بقاء النسبة على ماهي. وأنها لن تنخفض في المستقبل، حيث سيظل البشر في إطار هذه النسبة أغبياء معيبين على الدوام. فالديانـــات مثلا تعتبر أشكالا متنوعة لجوهر واحد، فالاشتراكية قد تجد مكانا لهـــا عـــن طريق إعادة تجميع فلول المؤمنين بالديانة الكاثوليكية السائدة أو أصحاب النزعة القومية، بالإضافة إلى إمكانية استيعاب عناصر أخر كثيرة. ومن ثم يستند التوازن الاجتماعي عند باريتو إلى العواطف الدائمة والثابتة. فكل الديانات تنبثق تقريبا من ذات العاطفة. ونتيجة لذلك، فإن انهيار أي من أشـــكال المجـــتمع لابـــد وأن يصحبه ظهور شكل آخر. غير أن الديانة أو المجـــتمع تشكل ظواهر دائمة وعامة، طالما أنها تتجدد أبدا بذات العواطف. وبالمـــثل فقـــد يتغـــير ولاء البشر، غير أن العواطف التي أدت إلى خضوع الطـــبقة الدنيا للطبقة العليا في الماضي تعبر عن ذاتها اليوم عن طريق تأكيد خضوع الطبقات الدنيا لقادة النقابات والأحزاب السياسية[٣٩].

ذلـــك يعنـــي أن لـــدى باريـــتو تصورا متشائما لحركة المجتمع في التاريخ، وعداء كامنا للنزعة التطويرية، أو لكل التراث الفكري الذي يؤكد أن المجـــتمع سائرا أبدا إلى الكمال. ذلك أن المجتمع القائم الذي نعيشه سوف لا نرى غيره أو نظيره إذا نحن قد توغلنا في الماضي السحيق أو إذا قفزنا إلى الحـــياة فـــي قلـــب المستقبل. ذلك يعنى أن تأكيد باريتو على دوام العناصر الأساسية أو الجوهرية في بناء المجتمع وعدم تغيرها يطرح رؤية تؤكد على الاســـتقرار والثـــبات الاجتماعـــي، وهـــي بطبيعـــتها رؤية مضادة للتغير

الاجتماعـــى. هذه الأفكار التى طرحها باريتو تعد انعكاسا مباشرا لحالة عدم الاستقرار التي عايشها باريتو في سياقه الاجتماعي.

٧- وتعتــبر العواطــف أو الرواســب هى المبدأ المنهجى السابع فى البناء الـــنظري لباريـــتو. حيث نجده يذهب إلى التأكيد على أن العاطفة هى القوة المســيطرة التـــى لهـــا وطأتها على السلوك الاجتماعى. ومن ثم فالعقلانية والمـــنطق يصبحا ذو أهمية ضئيلة فى ضوء ذلك. فعلى الانسان أن لا يهتم كثـــيرا بالتـــبريرات التـــى قد يبديها البشر، ولكن عليه أن يفحص العواطف الكامنة وراء ذلك، حيث تلعب هذه العواطف نفس الدور الذي يلعبه الأساس الاقتصـــادي بالنســـبة لمـــاركس. ولكـــن بيـــنما تؤدي التغيرات فى النسق الاقتصادي - عند ماركس- فى النهاية إلى تغيرات فى أخلاق البشر وأبنيتهم السيكولوجية، يعتبر الأساس العاطفى عند باريتو كيانا ثابتا، وأن ما يتغير هو التبريرات (المشتقات) التي تحاول تبرير تغير أو تنوع السلوك البشري(٤٠).

ذلك يعنى ان باريتو كان يستخدم (العاطفة) كمبدأ تفسيري أساسى فى كل الحالات. وفي نطاق ذلك نجده يطرح عدة ملاحظات يرفض من خلالها ما تقدمه وجهات النظر المادية والمثالية كمبادئ تفسيرية. فهو من ناحية ينقد النظرية المثالية باعتبارها نظرية خاطئة لكونها تنظر إلى الرواسب باعتبارها ســـببا للحقائق أو الوقائع، وبالمثل ينقد النظرية المادية التى تعتبر الحقائق أو الوقائع سببا للرواسب. ثم يؤكد أن الحقائق تؤكد الرواسب وتدعمها، وبالتالى تؤكـــد الرواسب على الحقائق وتدعمها أيضا. وتحدث التغيرات بسبب وطأة تأثـــير فاعلية قوي جديدة أثرت على الحقائق أو الرواسب أو كليهما معا، أي أن ظروفا جديدة هي التي فرضت التغير في أسلوب الحياة القائم(٤١).

الفصل الثالث

النظام الاجتماعي ودورة الصفوة في إطاره

تمهيد:

إذا كـان توماس هوبز قد حدد مشكلة النظام تحديد تصوريا وافتراضيا، فإن التفاعلات التى عاشها فلفريدو باريتو- وقت صياغته لنظريته- تؤكد أنه لمس الأبعاد الواقعية لمشكلة النظام الاجتماعى. حيث عايش واقعا اجتماعيا منهارا انطلق منه فى صياغة نظريته. بيد انه برغم اختلاف نقطة الانطلاق بين هوبز وباريتو فيما يتعلق بتحديد مشكلة النظام الاجتماعي، فإنه تبقي أمامنا بعض التماثلات.

فمن ناحية نجد أن فلفريدو باريتو قد تصور الأساس البيلوجى للطبيعة البشرية، والمتمثل فى الغرائز أو الرواسب باعتباره المتغير الذي يتحكم في تحديد طبيعة المجتمع القائم. فرواسب الأسود هي التى تحدد طبيعة النظام السياسى والمجتمع، وكذلك تفعل رواسب صفوة الثعالب. ويتسق ذلك إلى حد كبير مع تأكيد توماس هوبز فى تحديده للطبيعة البشرية، فى أنها اقرب ما تكون إلى الحالة الحيوانية، حيث الانسان مجموعة من الغرائز الأنانية الشرهة، وهى التى يحاول الانسان اشباعها، هذه الغرائز البدائية هى العناصر الكامنة وراء تأسيس النظام السياسى لتأمين استمرار اشباعها، وإلا إنحدر الانسان إلي حرب الكل ضد الكل، وواجه احتمالية الحرمان من الاشباع.

ويشكل الإيمان بدور الصفوة فى السيطرة على المجتمع وضبطه بغض النظر عن مشاركة الجماهير إحدى القضايا الهامة التى تشكل نطاق تماثل بين كلا المفكرين. فمن خلال العقد الاجتماعى يتخلى البشر أطراف التعاقد عن حقهم فى حكم أنفسهم لهذا الرجل أو هؤلاء الرجال، لكى يتولون حكمهم بما يضمن استقرار المجتمع. وهي نفس الصيغة التى نجدها عند باريتو، حيث التاريخ تصنعه الصفوات المتعاقبة دون أن يكون للجماهير دور في تشكيل التاريخ، وهو الأمر الذي يعني اتجاها للإيمان بالسلطة القاهرة

والضـــابطة والقادرة علي تأكيد تماسك المجتمع ووحدته واستمراره من قبل كلا المفكرين.

أن هـــناك تمـــاثلا واضحا بين توماس هوبز وفلفريدو باريتو يتعلق بالقضـــية الخاصـــة بالأسبقية أو الأولوية بين الفرد والمجتمع. حيث نجد أن تومـــاس هوبـــز يؤكـــد على أسبقية الفرد على المجتمع. فالأفراد قد وجدوا منعزليـــن فـــى حالـــة الطبيعة لا يعرفون أية معانى أخلاقية، إلى أن قادتهم تهديـــدات حالـــة حرب الكل ضد الكل، واحتمالات التأثير على تحقيق إشباع الحاجـــات الأساســـية إلـــى الاتفاق على تأسيس القواعد الأخلاقية المؤسسة للمجـــتمع، من خلال صيغة العقد الاجتماعى. إتساقا مع ذلك نجد أن فلفريدو باريـــتو يؤكـــد على الرواسب الكامنة فى أعماق الذات الفردية- وهى ذات طبـــيعة بيلوجية- باعتبارها التى تؤسس المشتقات أو المعانى الأخلاقية التى يتاء عليها تتولى الصفوة الحاكمة صياغة المجتمع. وحسب طبيعة الرواسب، تتحدد الأخلاق، وتتحدد طبيعة المجتمع.

وذلـــك يوحى بأننا أمام تشخيص متماثل لمشكلة النظام الاجتماعى، رأســـلوب متماثل لحل هذه المشكلة. الخلاف الأساسى بين كليهما أن توماس هوبز أدرك المشكلة ادراكا افتراضيا وقدم لها حلا افتراضيا. أما عند باريتو فقد كانت مشكلة النظام الاجتماعي لها وجودها الواقعي. ومن ثم فالتشخيص الـــذي قدمـــه باريتو تميز بالواقعية كذلك، وهو التصور الذي نعرض له في الصفحات التالية:-

أولا: النظام الاجتماعي، مشكلاته التحليلية والتاريخية.

ككـــل الأنســـاق النظرية فى هذه المرحلة أهتم باريتو بقضية النظام الاجتماعـــى ولـــو على طريقته الخاصة. ولقد دفع باريتو إلى الاهتمام بهذه القضـــية نوعيـــن مـــن القضـــايا أو المشكلات. الأولى ما يمكن أن نسميها بالمشـــكلات التاريخية، ونقصد بها مجموعة التفاعلات التى خلقت مجموعة من العوامل التي ساعدت علي انهيار النظام الاجتماعي في المرحلة التاريخية

التـــى عايشها باريتو، وهو ما يعنى بداية الاهتمام بقضية النظام الاجتماعى، ومـــا هـــى أفضـــل الظروف ملائمة لاستمرار النظام الاجتماعي بالحيوية المطلوبـــة. وتتمثل المجموعة الثانية في المشكلات التحليلية، وهى مجموعة المشكلات أو القضايا التى ينتفى عنها الطابع الواقعى، والتى يكمن مصدرها فى التصورات التحليلية والنظرية للمفكر أساسا، كتلك التصورات التى تتعلق بالطبـــيعة الانسدنية، أو التى تتصل بتوزيع الفرص فى المجتمع، أو الخاصة باستمرارية الصفوة فى السلطة، أو انهيارها لتحل صفوة جديدة في إطار ما يعرف بدورة الصفوة.

وفـــيما يتعلق بمجموعة المشكلات التاريخية نجد أن الواقع التاريخي لإيطاليا قد عاني من مشكلات عديدة خلال هذه المرحلة.

١- وتتمـــثل أولـــي هذه المشكلات فى حالة اليأس العامة التى انتابت النظام الاجتماعـــى خـــلال هذه المرحلة. ففى ١٨٧١ حينما أصبحت روما عاصمة ايطاليا الموحدة كان ذلك يعنى أن الصراع الطويل من أجل التحرير والوحدة الإيطالـــية قد بلغ غايته. وبرغم انتشار حالة من الإبتهاج العامة فى إيطاليا، فإنـــه كانت هناك حالة من اليأس العامة كذلك، أو لنقل حالة من الحزب على انـــتهاء مرحلة ممتعة ومنعشة فى التاريخ الإيطالى. وقد صور بنديتوكروس Benedetto Croce بصـــورة دقيقة روح هذه المرحلة حينما كتب. (تعنى نهايـــة كل فترة من فترات التاريخ موت شئ ما، وبرغم أن هذه النهاية عادة مـــا تكـــون مرغوبة ويسعى الجميع من أجلها.. فككل موت نجدها عادة ما تكون مغلفة بمناخ من الأسى والحزن. فلم تعد هناك نضالات شابة الآن، ولا سعيا متشوقا من أجل المثل الجديدة، والبعيدة عن التحقيق. لم تعد هناك أحلام كالمحـــيطات لا حدود لها، تشع بالخيال والجمال. لم تعد هناك أمال مرتعشة كتلك التى كانت فى السنوات ١٨٤٨، ١٨٩٥. لم يعد هناك تسابقا كريما، ولا اعلانا لأفكار البشر من أجل الاتحاد لهدف مشترك. لم تعد هناك تفاهمات أو اتفاقـــات ضـــمنية أو صريحة بين الجمهوريين والملكيين، أو بين الكاثوليك والمفكرين الأحرار، أو بين الوزراء والثوار، أو حتى بين الملك والمتآمرون،

حيث تتشابه مواقف الجميع من حيث خضوعهم لسيطرة مشاعر التضحية من أجل هدف وطني يشكل مصدرا لإلهامهم)[١].

فقد انتهت الآن الصحوة والاثارة الوطنية. وأصبح على الإيطاليين أن يكيفوا أنفسهم ومتطلبات الحياة السياسية العادية... فتوجد إيطاليا وهو الهدف الذي سعت إليه أجيال ايطالية وطنية عديدة أصبح الآن حقيقة مؤكدة[٢]. وحسبما تؤكد الحقائق الاجتماعية فإن غياب التهديد الخارجين قد يدفع فى ظروف معينة إلى ظهور الانشقاقات الداخلية، وعادة ما تكون نطاق الانشقاق هى مواطن الضعف في البناء الاجتماعي القائم، وهي هنا الحد الفاصل بين الشمال والجنوب.

٢- أنه منذ أصبحت الوحدة الإيطالية حقيقة مؤكدة، أصبح واضحا أنه تحت سطح هذا الاتحاد الإداري توجد اختلافات عميقة وهائلة بين الشمال والجنوب. فالشمال - سواء فى بيد مونت Piedmont في ظل حكم عائلة سافوي Savoy أو لمباردوفينيتا Lombardo Venetia فى ظل الإدارة النمساوية كان متطورا اقتصادية، ومدارا بصورة جيدة، وعلى طريق التحديث الاقتصادي والسياسي. غير أن الأحوال كانت مختلفة تماما فى الجنوب. فقد كان الجنوب على هامش الحضارة الأوربية الحديثة. فقد تم استغلال معظم الجنوب، وبخاصة مملكة صقلية والولايات البابوية بقسوة من قبل الحكام. وكان الشعب يعيش فى حالة فقر وانحلال لا يوصف. فقد كان الجنوب إلى حد ما زراعيا، وإلى حد كبير كان الفلاحين الجنوبيين أميين. ففى سنة ١٩١٨ تراوحت نسبة الأمية بين ٥٠%، ٧٠% وذلك فى مقابل ١١% كنسبة للأمية فى مقاطعة بيد مونت إذا فبرغم الاتحاد الظاهري، فإن الشمال والجنوب شكلا أمتين متباينتين من الناحية البنائية كل منهما غريب على الآخر.

وقد حاولت جماعات اليمين التى كان عليها أن تقود إيطاليا عدة سنوات بعد التوحيد أن تؤسس سياسة يمكن تسميتها بسياسة تطوير إيطاليا على غرار بيد مونت Piedmontization. فقد رغب اليمين أن يفرض على

كــل المجــتمع سياسة تنموية محددة نجحت فى الشمال، ورأي أن يكون من شأن هذه السياسة أن تفرض استمرار الفكر الليبرالى لكافور Cavour الذي حول بيد مونت إلى ولاية حديثة وذات حكم جيد وقوي. ولذلك فرض اليمين ضــرائب ثقيلة على المواطنين وأسس بناء إداريا مركزيا، وشجعت الحرية الــتجارية، وظهــر هناك سعى لتأسيس توازن فى الميزانية، وسعى النجاح اليمينــى إلــى إتباع سياسة خارجية تتسم بالحذر، وقد تشكلت الحكومة التى قــادت الــتطور فــى هــذا الاطــار من صفوة متنورة تضم مجموعة من المتخصصــين ذوي الامكانــيات العقلــية العالية، والذين ينتمون إلى الطبقة الوســطى، هــذه الصــفوة كانت تضم أشخاصا ينتمون إلى توسكا، لمباردو أساســا، وقــد كانــت بطبيعتها صفوة من الصعب أن تخفى ادانتها لتخلف الجــنوب[٣]. وقــد كان من الطبيعى أن تقود السياسات التى حاولت الصفوة الليبرالــية انجازهــا إلى تخلق توترات ورفض فى مقاطعات الجنوب، هذه التوترات كان من الممكن أن تشكل مناخا ملائما لآية صفوات أخرى تحاول قيادة الجنوب نحو وضع يتمكن فيه من اشباع احتياجاته الاجتماعية والثقافية، ونقيضا لمتطلبات الصفوة السابقة من أجل التحديث.

٣- شــكل حكــم اليسار لإيطاليا بعد التوحيد أحد المشكلات البنائية فيما بعد التوحــيد. ففــى مــارس ١٨٧٦ كان على حكم اليمين أن يواجه نهايته بعد هزيمــته السياسية فى البرلمان. ومن ثم بدأ ديبريتس الزعيم اليساري، تنظيم إدارة يسارية تامة. ولكى يؤمن سيطرة اليسار على السلطة، أجري انتخابات جديــدة. وبــرغم انخفاض المعايير الإيطالية فى مثل هذه الموضوعات، فقد اشتهرت هذه الانتخابات بالتهديدات الحكومية والممارسات الفاسدة. حيث هدد حكــام الأقاليم وتم أرهابهم أو رشوتهم لكى يصبحوا مساعدين للحكومة فى الانــتخابات. وقــد وعــدت المقاطعات الموالية للحكومة بالخدمات الكثيرة كمكاتــب الــبريد، والمــدارس، وبعض المرافق العامة، أما المقاطعات غير الموالــية، فقــد هــددت بخفض الخدمات القائمة لديها، إذا هى لم تسع إلى مناصــرة سياسات الحكومة. ونتيجة لذلك حقق اليسار كل النتائج اليت كان

يرغبها، حيث حصل على نحو ٤٠٨ مقعدا من مقاعد البرلمان في مقابل تسعين مقعدا حصل عليها اليمين.

ولا يمكن أن ننسب نجاح اليسار إلى الفساد السياسى فقط، ولكن كان هناك ظرف تخلق نتيجة لسياسات اليمين التى فرضت المعاناة، فقد ظهر تعب عام من مثالية اليمين المجردة، وأيضا من سياساته وتنظيماته الصارمة. حيث احتاج دافعوا الضرائب إلى إجراء إصلاحات من أجل الضرائب الثقيلة التى كان من الصعب تحملها، هذا إلى جانب أنه ظهرت هناك حاجة إلى نوع من الأمن العام. وقد احتاج البشر في الجنوب- والذين صوت غالبيتهم لصالح اليسار- إلى المساعدة التنموية بالنسبة للجنوبيين وساد اعتقاد عند كل شخص بأن حكم اليسار سوف يجلب معه الرخاء والتقدم [٤].

غير أنه كان واضحا أن حكم اليسار، على العكس من ذلك تماما، مماثل لحكم اليمين، وليس أفضل منه. فالفساد أصبح منتشرا الآن فى كل مكان حتى أضحى فنا له تقاليده ووسائله. وقد كان ديبريتس ومن جاء بعده غارقين في التحكم في وسائل القوة، غير أنهم كانوا عاجزين تماما عن تأسيس مجموعة من الإصلاحات تدعو الحاجة الماسة إليها. وقد وعدت الحكومة باصلاحات كبيرة غير أنها لم تنجز سوي القليل. بل ان بناء الحزب أصبح ضعيفا، وانشق عليه كثير من السياسيين في البرلمان، وساوموا الحزب على إعلان قوتهم السياسية وتجاوزه. ولم يجد اليسار أية اعتراضات لتوسيع عدد الناخبين. ومن ثم فقد وسعت قاعدة المنتخبين ليضم نحو ٧% من السكان فى ١٨٨٢. غير أن توسيع حق الانتخاب كان من الصعب أن يعنى مزيدا من المشاركة الشعبية فى الحكومة. ولكن كان يعنى فقط مزيدا من التحكم، وأيضا مزيدا من المساوات السياسية الفاسدة. وكنتيجة لذلك ظهرت حالة من عدم الثقة التقليدية فى الدولة، وبخاصة من قبل سكان الجنوب، وتزايد هذا الاحساس مع الزمن وتراكم الفساد. وبدأ معظم السكان ينظرون إلى الدولة باعتبارها جهازا هائلا يمتص ثروات البشر من خلال فرض الضرائب المتزايدة التي تنساب إلي خزائن الصفوة الفاسدة.

٤- ويعتبر فرض النظام العام ولو بالقهر هو المجال الوحيد التى نجحت فى إطاره الحكومات المتعاقبة. فحينما ثارت اضطرابات الفلاحين فى ١٨٩٤ فى صقلية، تولى كريسبى القضاء عليها بلا رحمة بمساعدة العسكريين. وفى السنة التالية صدرت القوانين التى قضت على التنظيمات الاشتراكية والفوضوية. والتى قضت أيضا على حرية الاجتماع والتعبير. وحينما انفجرت اضطرابات الخبز فى عام ١٨٩٨ فى أجزاء عديدة من المجتمع، ووصلت إلى حد الصراع الصريح فى ميلانو فى شهر مايو من نفس العام، أصدر الحاكم الذي خلف كريسبى القانون المدني، والذي قتل نتيجة لتطبيق أحكامه ٤٠٠ شخص وجرح أكثر من ذلك قبل أن تستعاد الأوضاع العادية. وفى هذه المرحلة صدرت أحكام قاسية من المحكمة المدنية، خاصة ضد الاشتراكيين. بحيث دفعت الكثير منهم إلي الفرار إلي سويسرا أو أية أمكنة أخرى يمكن اللجوء إليها(٥).

٥- وتعتبر الفضائح المالية التي وقعت خلال هذه المرحلة من المؤشرات التي شهدت علي حالة من الانهيار البنائي. ففي ١٨٩٤ مرت إيطاليا بأزمة اقتصادية أقدم بسببها جوالتي Giolitti مدير بنك روما علي تعيين تانلونجو Taniongo سيناتور، غير أن مجلس الشيوخ رفض هذا التعيين وقام يبحث في أحوال تانلونجو وعدد آخر من السياسيين المرموقين والشخصيات العامة كشف من خلاله أن تانلونجو قد أصدر مبلغا مزدوجا من أوراق البنكنوت. وكان الوزراء السابقون علي وعي بذلك، بحيث دفعت هذه الأوضاع البعض إلي الشعور بالأسي. وفي ظل حكمه تم توسيع حق الانتخاب. ولكن ككل التعديلات الانتخابية السابقة، لم يكن ذلك يعني أية زيادة حقيقية في المشاركة، ولكنه كان يعني فرصة لجوالتي لكي يمارس مهاراته في لعبة الانتخابات هذه.

٦- يضـــاف علـــى ذلك تردى الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى ايطاليا خـــلال هـــذه المـــرحلة فبرغم الفساد وسوء الحكم، حققت إيطاليا انجازات أقتصـــادية فـــى نصف قرن قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. فقد طورت صـــناعة قوية للنسيج. وبدأت ميلانو تحل محل ليون باعتبارها مركزا لنسج الحريـــر. وحلـــت ميـــناء جنوا تدريجيا محل مرسيليا. وتأسست شبكة من الخطـــوط الجديـــدة استعت حتى غطت ايطاليا. غير أننا إذا نظرنا إليها من خـــلال الـــنمو الصـــناعى الشامل لأوربا، فإننا نجد أن إيطاليا ظلت مختلفة بالمقارنـــة. فمثلا بلغ متوسط نصيب الفرد من الدخل القومى فى التسعينات نحـــو ٤٠ دولار، فـــى حيـــن بلغ هذا المتوسط بالنسبة لبريطانيا نحو ١٥٥ دولار، وفرنسا نحو ١٣٠ دولار. وقد بلغت صادرات إيطاليا فى مطلع القرن اقـــل كثيرا من صادرات بلجيكا. وبرغم كل الحديث عن التنمية، فإن الفجوة بيـــن الشمال والجنوب استمرت في الاتساع إذ أستمر الفلاحون يعيشون فى مـــناطق الجـــنوب فى حالة من البؤس الكامل. وقد تأجل الاصلاح الزراعى وهو الإجراء الذي كان الجنوب يحتاجه مرة تلو الأخرى، وذلك لأنه لم يكن هـــناك أحـــد من السياسيين يجر على مهاجمة امتيازات سادة الأرض الذين كانت لهم السيطرة السياسية والاقتصادية فى المناطق الزراعية، فكيف يمكن أن يـــنجحوا فـــى الانـــتخابات بدون أن يدافعوا عن مصالح سادة الأرض؟ ويرتـــبط بذلـــك أنه صدر قانون التعليم الإلزامي الإجباري فى ١٨٧٧ ولكن نادرا ما نفذ هذا الإلزام. وقد قرر البرلمان رصد التكاليف المطلوبة غير أن خـــوف كـــبار الملاك من إفتقاد قوة العمل الرخيصة بسبب التعليم الإلزامى للأطفـــال القادريـــن على العمل. هذا إلى جانب خوف البرلمان من الناخب المـــتعلم الـــذي قـــد يصـــعب عليه أن يوافق على الأساليب العتيقة للسيطرة والتحكم فى الانتخابات. كل ذلك دفع إلى عدم تنفيذ التعليم الإلزامى، وإن كان قد بذل جهد خلال هذه المرحلة لتحسين نظام الضرائب القاسى وغير العادل، الذي كان يعمل على دعم الجهاز الإداري لإيطاليا، وهو الجهاز الذي أصابه الغرور- من فرط قوة تحكمه- خلال هذه المرحلة(٦).

٧- إلى جانب ذلك غياب نظام قيمى متماسك يضم كلا من الشمال والجنوب فــى وحــدة واحدة، هذا إلى جانب غياب مجموعة القيم الأساسية التى تضم مجموعــة الطبقات فى إطار حالة من الوحدة الثقافية والاجتماعية. هذا إلى جانــب أن غياب هذه الوحدة الثقافية عادة ما يجعل السلوكيات الواقعية خالية مــن الــتوجه بأية مثاليات قيمية فعالة، ففترة الصراع السابق الذي قاد إلى الوحدة الإيطالية كان من المنطقى أن تتواجد فى ظل بناء قيمى متماسك يوجه النضــال ويقــوده. وهو البناء القيمى الذي لم يعد موجودا فى الفترة اللاحقة علــى توحــيد إيطاليا. ومن ثم تراجع التفاعل الاجتماعى عن السعى وراء تحقيق أهداف أو مصالح عامة إلى محاولة تحقيق مصالح فردية، وهو المناخ الذي ازدهر في إطاره الفساد إلي حد كبير.

٨- بالإضافة إلي ما سبق هناك عامل خارجي تعرض له المجتمع الإيطالي، فعمق لديه مشكلة النظام الاجتماعي. إذ حاول بعض حكام ايطاليا خلال هذه المرحلة الدخول في صراعات خارجية علها تؤسس الوحدة الداخلية للمجتمع الإيطالي. فمثلا حاول كريسبي لكي يتجنب ضغوط التوترات المحلية أن يتبع سياســة استعمارية ذات طبيعة توسعية في العالم الخارجي. وقد قاد ذلك إلي الدخــول في حرب مهلكة مع أثيوبيا، وهي الحرب التي أوصلتها إلي معركة أدوه Adua، حيث هزم نحو ٢٥,٠٠٠ ايطاليا مسلحا تسليحا حديثا بواسطة ١٠٠,٠٠٠ أثيوبي مسلحين تسليحا بدائيا تحت قيادة مينيليك Meneleg، ثم الوصــول إلــي معاهدة أديس أبابا حيث سلمت ايطاليا في إطارها، باستقلال أثيوبــيا، وانســحبت إلي مستعمرة اريتريا Eritrea الصغيرة. ذلك يعني أن المخططــات الاستعمارية لإيطاليا واجهت نفس التفاعلات التي من شأنها أن تعمق اشكالية النظام الاجتماعي وتزيد من انهياره.

أمــا المجموعــة الثانية من المشكلات فهي ذات طابع تحليلي، وهي تختلف عن مجموعة المشكلات التاريخية في أنه ليس لها وجود واقعي داخل الــزمان والمكــان، وإن كــان لهــا وجودها في الطبيعة الأساسية للفرد أو المجتمع، ومن ثم فعادة ما يكون لها آثارها الاجتماعية والبنائية.

١- وتــتعلق الحقيقة التحليلية الأولي بطبيعة تصور الفكر الإيطالي- بما فيه الأفكــار الباريــتوية- للطبيعة الانسانية. فالقليل من الفكر الإيطالي هو الذي حــاول تــناول ســلوك الانسان بالنظر إلي القوى الاجتماعية الموضوعية. وباستثناء الفيلسوف والمشرع جيوفاني فيكو Glovanni Vico نجد أن الفكر الإيطالي لم يتصور إلي حد كبير فكرة المجتمع كحقيقة موضوعية له قوانينه الخاصة به. وتتمثل نقطة بدء الفكر الإيطالي الاجتماعي منذ ميكيافيلي حيث تصــور الانســان غــير المنشأ اجتماعيا والذي يشارك في نسيج العلاقات الاجتماعــية، ومــن خــلال هذه المشاركة تتولى النظم الاجتماعية تطبيعه وتشــكيله، هــذا بالإضــافة إلي أخذ العناصر الأساسية المشكلة لطبيعته في الاعتــبار. ويشــعر المفكرون الإيطاليون بأن البشر لديهم بعض الخصائص الثابــتة وأن علي المفكر الاجتماعي أن يهتم أساسا بتوضيح وفحص الطبيعة الانسانية وذلك لكي يتعرف علي أسلوب تأثيرها علي السلوك الاجتماعي في ظــل ظــروف اجتماعــية مختلفة. فقد أكد ميكيافيلي في كتابه الأمير The Prince أن البشــر كائــنات عاقــة Ungrateful، وأنهم متقلبون Fickle كذابون Lying، منافقون Hypocritical، جبناء وشرهون. ومن ثم ينبغي أن يــأخذ المــنظرون الاجتماعيون هذه السمات البشرية في الاعتبار. مثلما ينبغــي أن يكون المهندس علي وعي بالمواد التي يحاول بها بناء قنطرة(٧). فالمعــرفة الرشيدة- بالنسبة لميكيافيلي ومن جاء بعده - لا تسعي من أجل

اكتشـــاف القوانين الاجتماعية التي تنظم الاستقراء والتغير، وإنما ينبغي أن تهـدف أساســا إلي تحليل طبيعة المادة التي تدخل في بناء الكل الاجماعي. وفضـــلا عن ذلك. فينبغي أن لا ننظر إلي النظام الاجتماعي باعتباره يظهر تلقائيا كنتيجة لفاعلية القوانين داخل الكيان الاجتماعي. ذلك يعني أن السلطة التـــي قد يمتلكها بعض البشر علي آخرين، أو قدرة بعض البشر علي فرض إرادتهـم علي الآخرين، تعتبر عنصرا أساسيا في الفكر الإيطالي الاجتماعي ابـــتداء مـــن ميكيافيلـــي وحتى باريتو. ذلك يعني أن إدراك باريتو – والفكر الايطالـــي – لطبيعة الانسانية يعتبر إدراكا مشكلا، يسير حسب ذات خطوط الفكر النفعي. ومن ثم فهو يؤسس بذلك برهنة منطقية تؤكد علي ضرورة قيام نظـــام اجتماعـــي يتكامل وهذه الطبيعة البشرية. وهو في ذلك يعكس أفكارا قريـــبة للغايـــة مـــن الأفكار التي طرحها توماس هوبز فيما يتعلق بالطبيعة البشرية.

غير أنه فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي والسياسي فإننا نجد أن الفكر الإيطالي يصوغ مفارقة هامة عجز عنها الفكر النفعي علي يد توماس هوبز، وهـــي المفارقـــة بين الدولة والمجتمع. حيث كان الفكر الايطالي مهتم أساسا بالدولة وليس المجتمع. إذ أصبح ينظر إلي النظام الاجتماعي باعتباره ملحقا بالدولـــة، أو باعتباره المجال الذي يناضل فيه الأفراد والمجموعات من أجل الســـيطرة وتملـــك سلطة الدولة. فالقائم بالتحليل الاجتماعي من وجهة نظر التفكـــير الميكيافيلي ينبغي أن يمارس نوعا من التحليل الشكي الدقيق بهدف الـــتعمق في الجذور العميقة للطبيعة البشرية. فإذا أمتلك الباحث هذه المقدرة فإنـــه ســـوف يكـــون بإمكانه اقتراح الأساليب التي يمكن أن يتعلم بواسطتها الأفراد الأقوياء ذوي القدرات الاستثنائية كيفية الاستفادة من جهود البشر في

بناء جهاز الدولة القوى، وهو الجهاز الذي سوف يكون بإمكانه السيطرة علي الاستعدادات الفردية القوية للذات. وهو ما يعني أن التكامل الاجتماعي يتم فرضه من الخارج بواسطة أمير أو بواسطة صفوة طبقية Class- Scelta. فهي التي يكون في مقدورها تأسيس البناء الاجتماعي حسب قواعد تتطابق ومعرفتها الامبيريقية بالطبيعة البشرية، وأيضا عن طريق فرض إرادتها علي الجماهير المتمردة(٨).

٣- وتتصل الحقيقة التحليلية الثالثة بطبيعة التغيرات التي تطرأ علي بناء استعدادات أو اهتمامات الصفوة. حيث يري أن الخطر يحدث حينما تكون المراكز التي ينبغي أن يشغلها بشر لديهم إمكانيات حقيقية. مشغولة بواسطة أفراد لا يمتلكون أيا من هذه الملكات (ففي البداية تعتبر الارستقراطيات العسكرية والدينية والتجارية أجزاء مكونة للصفوة الحاكمة، بل أنها قد تشكل كل كيان الصفوة في بعض الأحيان. حيث يعتبر المحارب المنتصر، والتاجر الثري، وصاحب النفوذ بشرا يشكلون هذا العناصر. فذلك هو مجالهم الذي يسمون من خلال أو يتجاوزون الإنسان العادى). وفي إطار هذه الظروف فإن كلمة الصفوة تتصل عادة بالقدرة الحقيقة. ولكن مع مرور الزمن تحدث مفارقة بين القدرة، وبين مفهوم (الصفوة) ذاته، فالارستقراطية لا تدوم. ذلك أن التاريخ هو مقبرة الطبقات أو الصفوات الأرستقراطية. ولا يحدث الانهيار في العدد فقط، ولكنه يحدث في الكيف أيضا. وذلك بالمعني الذي تكون فيه الصفوة قد فقدت عناصرها الجوهرية. وهو ما يعني أن هناك انهيار في معدلات الرواسب التي تمكنها من كسب قوتها والتمسك بها. غير أنه يمكن للطبقة الحاكمة أن تستعيد أوضاعها من حيث العدد، أو من حيث الكيف، ذلك عن طريق تعويض نفسها من الأسر التي ترتفع إليها من الطبقات الدنيا،

وأثـــناء صـــعودهم فإنهم يأخذون معهم نسبة من الرواسب الضرورية التي تساعدهم علي الاحتفاظ بالسلطة. ويعتبر تراكم العناصر أو الرواسب المتفوقة في الطبقات الدنيا، أو تراكم العناصر أو الرواسب المتدنية في الطبقات العليا أحد الأسباب الرئيسية وراء اهتزاز التوازن في المجتمع[٩].

وحينما تحاول الصفوات الحاكمة أو غير الحاكمة الاقتراب من تدفق العناصـــر الجديدة والأكثر قدرة من البشر المكونين للمجتمع، أو حينما تعاق دورة الصـــفوات فـــإن التوازن الاجتماعي يهتز وينهار النظام الاجتماعي. ويؤكـــد باريتو أنه إذا لم تعثر الصفوة الحاكمة علي الأساليب التي يستوعبُ بواســـطتها الأفـــراد ذوي القـــدرات الاستثنائية الذين يشغلوا مقدمة الطبقات المحكومة فإن نوعا من عدم التوازن في الكيان السياسي والاجتماعي يحجث إذا لم تصحح الشروط أو الظروف، أما من خلال فتح قنوات جديدة للحراك، أو من خلال الإطاحة بالصفوة الحاكمة والمؤثرة بواسطة صفوة جديدة قادرة علي الحكم والسيطرة[١٠].

٤- ذلك ينقلنا إلي قضية القوة Power باعتبارها قضية تحليلية تحتل مكانة هامة في نظرية باريتو. فمنذ البداية يركز كثيرا علي عدم تلاؤم المصالح بين البشـــر في المجتمع. وفي هذا الصدد نجده يقدر كثيرا موقف كارل ماركس باعتباره قد ركز علي هذا العامل في بنائه النظرى. ذلك يعني أن باريتو أكد كثـــيرا موقـــف كـــارل مـــاركس باعتباره قد ركز علي هذا العالم في بنائه النظرى. ذلك يعني أن بارتيو أكد كثيرا علي دور القوة والاغتيال في الحياة الاجتماعـــية. وهـــو رأي يشارك فيه كلا من ميكيافيلي وهوبز، وهي الآراء التي تختلف بالتأكيد عن وجهة نظر الفرد مارشال في هذا الصدد[١١].

ويحـــاول باريتو أن يعرض تحليليا لسياق استخدام القوة في المجتمع فــيؤكد أنـــه فـــي أي مجتمع ينبغي أن يوجد ميكانيزما معينا يتم بالنظر إليه الفصل في الإدعاءات المتباينة للأفراد في سعيهم إلي السيطرة علي الموارد غـــير البشرية المحدودة. وهناك طريقين بديلين للعملية التي يمكن أن يحدث بهـــا تكيـــيف هذه الادعاءات المتباينة. فإما أن يحدث اتفاق كنتيجة لأن كل فريق يحاول تحقيق أهدافه في ظل الظروف القائمة، أو أنه قد يفرض مبدأ ما من خارج العملية التنافسية ذاتها، والذي يكون من نتيجة الوصول إلي موقف مستقر نسبيا. غير أن هؤلاء الذين قد يؤيدون الحل الأول قد يواجهون مشكلة أن هذا الحل لا يوضح التحديد الذي قد يفرض علي الوسائل التي يستخدمها فرد أو جماعة بهدف أحكام سيطرتها علي المصادر علي حساب الادعاءات التـــي قـــد يطرحها أفراد جماعة بهدف أحكام سيطرتها علي المصادر علي حســـاب الادعاءات التي قد يطرحها أفراد أو جماعات أخرى. حيث أنه في حالـــة غياب مثل هذا التحديد فإنه لا يكون ثمة عائق أمام الاستخدام الشامل من قبل كل طبقة للوسائل التي يمكن أن تكون ذات فعالية قهرية.

وإلـــى المدى الذي يسيطر فيه فرد أو جماعة على عناصر الموقف الذي يسلك فيه الأخر، بالقدر الذي يؤثر فيه على تحقيق هذا الآخر لأهدافه. فإنـــه يكـــون بإمكانه استخدام هذه السيطرة كطريقة للتأثير على موقف هذا الآخر. على سبيل المثال أن يهدد بتغير طبيعة الموقف، بما لا يساعد الآخر علـــى تحقـــيق أهدافه. وهو بذلك يجعل من المفيد بالنسبة للآخر أن يفعل ما يـــريد، وذلك لكي يتجنب التغييرات التي قد تهدد تحقيقه لأهدافه. وقد اتضح فـــي الأدب الكلاســـيكي لهوبز أن هذا الاستخدام المحدد للقهر قد يؤدي إلى الصـــراع الصريح الذي قد يدفع فى حالة غياب القوي ذات الطبيعة القهرية إلـــي إنحـــدار المجـــتمع إلـــي حالة (حرب الكل ضد الكل) أعنى حكم القوة

والاغتيال. وعلى هذا الأساس، فطالما أن غايات الفعل أو السلوك هي عوامل ذات طبيعة واقعية فإنه ينبغي أن تكون هناك سيطرة ما على ممارسة البعض للقــوة القهــرية علي الآخرين إذا كان من الضروري أن يكون هناك نظاما اجتماعيا(١٢).

بالــنظر إلــى هــذا الموقف يضع باريتو حلا لمسألة أستخدام القوة لترســيخ الــنظام الاجتماعي. فهو يؤكد أنه إذا كان هناك مجتمعا تصبح فيه الطــبقة الحاكمة (أ)- لاعتبارات إنسانية أو أية اعتبارات أخرى- عاجزة أو غير قادرة على استخدام القوة، فإنها في هذه الحالة تهرب من واجبها كطبقة حاكمــة. ويكون المجتمع في هذه الحالة على طريق انهياره، حينئذ فإننا نجد أن الطــبقة المحكومــة (ب) تحــاول تطبيق استخدام القوة على أوسع مدى ممكــن. ولتحقيق ذلك فهي لا تطيح فقط بالطبقة الحاكمة، ولكنها تقتل عددا كبــيرا مــن أعضــاءها. فإذا فعلت ذلك، فإنها بذلك تؤدي خدمة اجتماعية وانسانية عامة، أشبه ما تكون بتخليص المجتمع من نفايات حيوانية. وبسبب ذلــك فإن النسيج الاجتماعي يكتسب استقرارا وقوة، ويتم انقاذ المجتمع من الدمــار. أو يعــاد ولادته من أجل حياة جديدة. ومرة أخرى يعتبر الاغتيال والنهــب مؤشرات خارجية على قدوم بشر أقوياء وشجعان إلي الأماكن التي كان يشغلها فيما مضي الضعفاء غير الأقوياء.

وفى تعليقه على الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ نجده يذهب إلي أنه لو توفر لدى الطبقة الحاكمة ايمان يشير عليها باستخدام القوة أو إرادة استخدام القوة، فإنه كان من المستحيل الإطاحة بها. أي أنه إذا تمكنت الطبقة الحاكمة من الحفاظ على امتيازها، فإنها تكون قد تمكنت من الحفاظ على فرنسا. ومع ذلــك، فبسبب فشلها فى آداء وظيفتها فإنه من الأفضل أن تخلى عن السلطة التي في يدها إلي أشخاص لديهم إمكانية اللجوء إلي استخدام القوة (١٣).

ذلك يعني أن النظام الاجتماعي لدي فلفريدو باريتو يعاني من مشكلة بنائية لها عواملها التاريخية والتحليلية، وهي العوامل التي نوجزها فيما يلي:

١- فبالنسبة للعوامل التاريخية نجد العوامل التالية:

(أ) هـناك الانقسـام البنائى بين الشمال والجنوب، فبرغم التوحيد السياسي مازال هناك نظاما اجتماعيا متباينا أو لا يسوده التجانس.

(ب) ضعف الصفوة الحاكمة، سواء صفوة اليمين أو اليسار. الأولى فرضت المعاناة في مواجهة التخلف، والثانية غرست الفساد طلبا لأحلام التقدم.

(ج) أن الـنظام الاجتماعـي من الضعف بحيث نجد أن الأحداث الخارجية عمقـت ضعفه وانهياره (الحرب مع أثيوبيا) ولم تدعم تماسكه علي ما تؤكد القوانين السوسيولوجية.

(د) انتشار الفساد الاقتصادي والاجتماعى كنتيجة لغياب التوجيه الأيديولوجى والثقافي الملائم، بسبب عدم صلاحية أيديولوجيا وقيم ما قبل التوحيد، أو عدم صلاحيتها لقيادة تفاعلات ما بعد التوحيد.

٢- هذه المشكلة لها أيضا الأسباب التحليلية التالية:

(أ) أولهـا. الطبيعة البشرية الشريرة للإنسان الفرد مما يفرض استخدام القوة لفرض اتباع السلوك الاجتماعي الذي ينبغي أن يكون.

(ب) ضـعف رواسب القوة والسيطرة عند الصفوة الحاكمة، مما قد يفرض تجاوزها بصفوة أخرى تمتلك رواسب قوية للسيطرة والضبط.

(ج) أن هـناك تناقض فى مصالح الجماعات وأن الطريقة لحل هذا التناقض يكـون مـن خلال حل مفروض من الخارج بواسطة صفوة قوية، تدافع عن مصالحها باعتبارها مصالح المجتمع.

بذلك نجد أن فلفريدو باريتو وأن أكد على وجود مشكلة يعانيها النظام الاجتماعـي الـذي يفتقد إلى الاستقرار والتوازن، فإنه يري أن الحل الوحيد لفرض النظام والتوازن يمثل فى أن تتولى السيطرة على المجتمع صفوة قوية تفرض الاستقرار بالقوة، وتكتسب شرعيتها السياسية والاجتماعية، ليس من المجـتمع أو المصـلحة الاجتماعـية ولكن من خلال قوتها وإمكانياتها علي استخدام القوة لقهر الأخرين واخضاعهم.

ثانيا: الرواسب، كقوى دافعة للاستقرار والتغير.

إذا اتفقنا على أن ثمة مشكلة للنظام الاجتماعى كما عرضنا فى الفقرة السابقة، فإنه من المنطقى أن يحدد باريتو المتغيرات الأساسية التى تتحكم فى الـتفاعل الاجتماعى. ومن ثم فأي اعاقة لفاعلية هذه المتغيرات يعنى تخليقا لمشـكلة نظامية، وأن إباحة المجال لفاعليتها يعني انتفاء إمكانية قيام مشكلة نظامية أساسا.

ومـثلما ذهب كارل ماركس إلى التأكيد على وسائل الانتاج أو البناء التحتـى باعتباره المتغير الحاكم للتفاعل الاجتماعى. أو مثلما ذهب فيبر إلى التأكـيد علـى القيم البروتستنتية باعتبارها المبدأ الذي يستند إليه قيام النظام الاجتماعـى، أو حسبما يذهب دوركيم إلى القول بأن تفسيم العمل الاجتماعى هـو مصـدر مشكلة النظام الاجتماعى وهو طريق حلها أيضا، فإننا نجد أن باريتو يرى أن الرواسب هى المبادئ الأساسية أو المتغيرات الحاكمة للتفاعل في إطار النظام الاجتماعي.

فمـا هـى إذا الرواسـب التى تشكل المبادئ الأساسية الكامنة وراء وجود المجـتمع وجـودا منظما مستمرا. فى هذا الصدد نجد أن هناك من يؤكد أن الرواسـب ليست سوى تجليات للعواطف أو على الأقل لها ارتباط بها، غير أنها بالتأكيد لا تشكل نظائر لهذه العواطف. وعلى هذا النحو تعتبر الرواسب متغـيرات وسـيطة بيـن العواطف التى لا تستطيع التعرف عليها بصورة مباشـرة مـن ناحية، وبين أنساق المعتقدات والأفعال التى نعرفها ونستطيع تحلـيلها من ناحية أخرى. وفضلا عن ذلك تتصل الرواسب بغرائز الانسان غـير أنهـا لا تتصل بكل غرائزه، طالما أنه بإمكاننا أن نكشف تلك الغرائز التي يمكن صياغتها عقليا في شكل نظريات، بينما أخرى تظل كامنة[١٤].

ويحـاول بيترم سروكن تقديم شرح لطبيعة هذه الرواسب فيؤكد أن الأفعـال الانسانية عادة ما تعتمد على طبيعة دوافعها. ومن بين هذه الدوافع، هـناك بعد الدوافع التى لها أهميتها الخاصة، وهى الدوافع التى تتميز بالدوام النسبى، هذه الدوافع هى الرواسب Residues. والرواسب عند باريتو ليست غرائز، وليست عواطف أيضا، أنها نوع من الدوافع الدائمة نسبيا، تلك التي

توجد بين أعضاء المجتمع، بغض النظر عن مسألة نسبية دوامها للغرائز أو لأي شـــئ آخـــر. إذ تتصـــل الرواسب بما يسميه البورت ستايلز Allport Styles (ردود الفعل اللاإرادية القوية Per potent reflexes) أو ما يسميه بتراجسكى Petrajitzky المشاعر – Emotions أو ما يسميه علماء النفس (بالمركـــبات أو العقد Complexes) كمركب أو عقدة النقص. أو ما يسميه لوويـــل A. L. Lowell بالاستعدادات أو الاهتمامات Dispostions. غير أنـــه فـــى التحليل النهائى نجد أن الرواسب تستند إلى الغرائز، بيد أنها على النقـــيض منها، إذا تتميز تجلياتها بأنها ليست صارمة. وهى تختلف إلى حد كبير حتى أنها قد تتخذ أشكالا متباينة إلي حد التناقض. فمثلا نجد أن الراسب الجنســـى علـــى العكـــس من الغريزة الجنسية قد يتجلى ليس فقط فى أفعال الجمـــاع الجنســـى Copulation(وهو الشكل الملائم للاشباع، أو التجلى المعتاد للغريزة الجنسية). ولكن التجلي بالنسبة للراسب الجنسي قد يتخذ شكل التقشـــف الجنسى أو تشويه وبتر Mutilation الأعضاء الجنسية أو الادانة المتقشـــفة للشهوة الجنسية أو الحياة الجنسية كلها. ونفس الشئ يمكن أن يقال فيما يتعلق بالرواسب الأخري فى علاقتها بالغرائز، إذ تعتبر الرواسب تجليا للغرائز والعواطف، وهى فى ذلك تناظر ارتفاع الزئبق فى الترمومتر كتجلى لارتفـــاع درجـــة الحرارة[١٥]. ذلك يعنى أن الرواسب تعتبر تجليا للعواطف Sentiments، باعتـــبارها القوى التى تحدد طبيعة التوازن الاجتماعى[١٦]. ذلـــك يعنـــى أن الرواســـب هـــى مجموعة من المبادئ العامة ذات الأساس البيلوجـــى داخـــل الكائن الانسانى، لكنها تتجلى فى شكل سلوكيات اجتماعية محددة تصنع فى مجموعها الوجود الانسانى والاجتماعى برمته. فقد يشارك الانســـان الحيوان فى الأساس البيلوجى للرواسب، لكنه يختلف عنه فى قدرة الرواسب في إطار العالم الانساني علي أن تتخذ تجليات متباينة ومتنوعة.

ذلـــك يفرض علينا ضرورة أن نحدد طبيعة هذه الرواسب كما رآها باريتو، حيث نجد من خلال قراءة أفكاره أنها تتصف بعدة خصائص رئيسية نذكر بعضا منها فيما يلي:

(أ) أول هذه الخصائص التى تتميز بالثبات النسبي وليس المطلق. وبرغم أنها قد تخضع للتغير مثل المشتقات، إلا أن معدلات التغير ونطاقه عادة ما يكون أكثر بطأ ومحدودية إذا قارناها بالمشتقات التى تعتبر أكثر تغيرا وتنوعا. وفضلا عن ذلك فقد أوضح باريتو أنه برغم اختلاف المشتقات من حيث أشكالها الواقعية بين الأزمنة والشعوب المختلفة، فإننا نجد أن فئات الرواسب الأساسية التي تتعلق بالأيديولوجيات عادة ما يكون لها دوامها النسبي. فمن الملاحظة السطحية نجد أنه ليس هناك اختلاف كبير بين البدائى الذي يؤله معبوده أو مليكه من ناحية، وبين الاشتراكي المتحمس الذي يعيش في زماننا الحالي، فكلاهما لديه راسب التألية[١٧].

(ب) على عكس المشتقات أيضا نجد أن الرواسب غير متنوعة. ففى الماضى كان راسب الطاعة يكشف عن نفسه في الخضوع أساسا للملوك أو القساوسة أو النبلاء. أما الآن فقد تم القضاء على هذه الأشكال من الطاعة. غير أن الراسب مازال باقيا، وأخذ يكشف عن نفسه فى طاعة الزعماء العقائدين أو الخضوع لقادة النقابات أو لرجال الصناعة وما إلي ذلك، فالأشكال قد تختلف أو تتنوع، لكن الراسب دائم وثابت. فراسب فرض الوحدة أو التآلف على أفراد المجتمع قد تجلى فى الماضى من خلال عدم التسامح الدينى أو القضاء على من يهاجم الثروة الخاصة، وما إلي ذلك. أما الآن فنحن نملك قدرا من التسامح فى هذا الصدد، غير أننا مع ذلك أيضا أصبحنا لا نتسامح فى مواجهة بعض السلوكيات كتعاطى المخدرات، أو نقد المصلحين أو الذين ينادون بديانات الانسانية أو التقدم. فقد تغيرت المشتقات لكن الرواسب ظلت كما هي[١٨].

(ج) أن الرواسب الستة ليست موزعة بالتساوي بين أفراد المجتمع. أو بين مختلف الطبقات الاجتماعية أو الجماعات المختلفة. إذ يوجد الأفراد أو الجماعات التى تمتلك قدرا كبيرا من الرواسب القوية من الفئة الأولى (رواسب الترابط)، بينما هناك أفراد آخرون أو جماعات لديهم عددا كبيرا وقويا من رواسب الفئة الثانية (رواسب التجمع). ويصدق نفس الأمر بالنظر

إلى فئات الرواسب الأخرى، وتتضح أهمية ذلك من خلال أن الراسب السائد هـو الـذي يشكل طبيعة الشخصية الانسانية للفرد أو الجماعة. فهو يطبعهم بطابع خاص، ويحدد بقدر كبير السلوك الفردي أو طبيعة التنظيم الاجتماعى للجماعـة. ويكشـف فحص هذه الرواسب الستة إدراك أن أهمها يتمثل فى مجموعـة رواسب الفئة الأولى ورواسب الفئة الثانية. واستنادا إلى ذلك ميز فيـبر بيـن نموذجيـن اجتماعيين لشخصية الأفراد، المضاربون أو الثعالب Speculatore والمحـافظون أو الأسود Rentiers . حيث ينتمى النموذج الأول لهؤلاء الذين تقوي لديهم رواسب الترابط، وتضم هذه الفئة كل هؤلاء الذين يشجعون على قيام آية ارتباطات أو ترابطات جديدة Combinations، كالمقاوليـن أو المديريـن للمكـائد. يعنى ذلك أن هذه الفئة تضم كل الذين يبحثون عن صياغة ترابطات أو تأسيسات جديدة (مالية كالمشروعات، فكرية كالمخـترعات، أو سياسة كتأسيس التنظيمات، أو دبلوماسية أو أي تنظيمات من أي نوع غير ذلك).

أمـا المحافظيـن فهـم الذين يقوي لديهم راسب استمرار التجمع أو الترابط، ولهذا السبب فهم من الناحية السيكولوجية يمتلكون نموذج المحافظ. وفـى العادة لا يهتم هؤلاء بالاختراعات، والترابطات أو التأسيسات الجديدة، ولكـنهم يحاولون دائما الحفاظ علي ما هو قائم أو انقاذه إذا تعرض للخطر تأكيدا لضرورة استمراره. فهم أشخاص لديهم إحساس قوي بالواجب، ولديهم إرادة حديديـة وصارمة، وهم جادون صارمون فى أفعالهم. ويمكن أن يوجد مـن بينهم كثير من ذوى الأفق الضيق، أو القادة الحديديون لأية حركة، فهم صارمون في سلوكياتهم، وهم في غالب الأحيان خياليون(١٩).

(د) أن هـناك صـلة بين توزع الرواسب من ناحية. وبين دورة الصفوة فى المجتمع من ناحية أخرى. ومن ثم فلذلك علاقة بقضية التغير الاجتماعى. إذ تعتـبر هذه الرواسب عنصرا أساسيا لتفسير دورة الصفوة فى المجتمع. وفى هـذا الصدد يؤكد باريتو أنه ليس فقط أن الذكاء والاستعدادات موزعة بشكل متبايـن بيـن أعضـاء المجتمع ولكننا نجد أن الرواسب هي الأخري ليست

موزعة بصورة عادلة بين أفراد المجتمع، ففى ظل الظروف العادية نجد أن رواسب المحافظة من الفئة الثانية هى التى تنتشر بين الجماهير. ومن ثم تخلق لديهم احساسا بالخضوع. ومع ذلك، فإنه لكى تصبح الصفوة الحاكمة مؤثرة، فإنها ينبغى أن تتكون من الأفراد الذين لديهم خليطا قويا من عناصر أو رواسب تنتمى إلى الفئة الأولى وأخرى تنتمى إلى الثانية. فانتشار الاهتمامات الصناعية والتجارية يعمل أساسا على اثراء الطبقة الحاكمة بالأذكياء، والحاسمين الذين يمتلكون قدرا كبيرا من غرائز الترابط، وهى الغرائز التى تزود المجتمع بأفراد أقوياء. ويستطيع الفرد أن يحمن أنه إذا سيطر على الحكم، الأفراد المخادعون، والماكرون والمؤسسون للترابط، فإن سيطرة الطبقة التى يسودها راسب الفئة الأولى سوف تستمر لفترة طويلة. غير أن الحكم يعنى إلي جانب ذلك القوة، وكلما كان الراسب من الفئة الأولى ينمو بقوة أكثر، فإن الراسب من الفئة الثانية يكون أضعف من حيث نموه. وهو ما يعنى أن الأفراد الذين يشغلون السلطة يصبحون فى العادة أقل ميلا لاستخدام القوة وينتج عن ذلك توازنا غير مستقرا. وقد تحدث الثورات لتجاوز هذا الوضع القلق، إذ تحمل الجماهير التي لديها رواسب الفئة الثانية قوية، نفسها إلى الطبقة الحاكمة، أما من خلال التسلل التدريجي أو من خلال الانفجار المفاجئ عن طريق الثورات[٢٠].

(هـ) عادة ما تشكل الرواسب أساسا للمشتقات. فالرواسب هى العناصر الدائمة وراء المشتقات المتغيرة. هذه الرواسب تعرف عادة باعتبارها ثوابت أو دوائم Constants، ولا يهتم باريتو كثيرا فى تناوله للرواسب إذا كان التعبير عنها يتخذ شكل عبادة الأوثان أو تحية العلم الوطنى، أو دعما للخلاص الانسانى، أو تصويتا لصالح الاشتراكية الخ، حيث تعتبر هذه الأشكال كلها مشتقات متنوعة لذات الحالة السيكولوجية غير المتغيرة نسبيا للانسان. فكل هذه الأفعال، أيا كان الاختلاف الذي تتبدى به تتحرك بنفس القوة الدافعة، نفس الراسب الثابت والدائم. أما ما يتغير أو يتنوع تاريخيا، فيتمثل في التفسيرات Explanations، أو الأسباب Reasons أو التبريرات

الـــنظرية التـــي يمكـــن أن يقدمهـــا البشر لأفعالهم غير أن هذه المشتقات Derivation كمـــا يســـميها باريتو (على الأقل باعتبارها من وجهة نظره مشـــتقة عن العواطف) ينبغي أن ينظر إليها في ظل كل الظروف باعتبارها نـــتائج أو آثار العاطفة، أو هي السبب النهائي لكل من الأفعال غير المنطقية والتفسيرات غير المنطقية. ويعتبر كل من الفعل (الراسب) أو التعبير اللغوي المقـــدم لتبريره (المشتقات) غير قابلة للملاحظة. غير أن كليهما يعتبر تجليا لقوة دائمة غير ملحوظة تسمى بالعاطفة. بيد أننا نجد أن باريتو لم يوضح لنا كـــيف يمكن لهذه الرواسب أو (الثوابت) أن تحدد أفعالنا العديدة، ووفقا لأي منطق يمكن للرواسب أن تحدد الأفعال والمشتقات(٢١).

ويوضـــح ســـروكن ذلـــك مؤكدا أن طبيعة الرواسب هي التي تحدد طبـــيعة الأفعـــال الانســـانية. حيث تعتبر هذه الأفعال إلى حد ما تجليا لهذه الرواســـب، وعـــادة مـــا يتخذ هذا التجلي في إطار الكائنات البشرية شكلين رئيسيين. الشكل الأول، الأفعال التي لا تتبعها ردود فعل كلامية، أو الأفعال التـــي لا تتـــبعها عمليات وعي ذاتية، وذلك مثل الفعل التلقائي أو الغريزي، حيـــث (أ) الراسب يقود إلى (ب) الفعل أو السلوك. أما الشكل الثاني فيتمثل فـــي الأفعـــال التـــي تتـــبعها في العادة ردود فعل كلامية وأيديولوجيات أو تـــبريرات، ودوافع ونظريات وعمليات سيكولوجية تتصل بالضمير الفردي، وعديد من ردود الفعل الكلامية وغير الكلامية، الصريحة والضمنية (٢٢).

(و) تعكس الرواسب والمشتقات في العادة علاقة الوجود الاجتماعي الخارجي بالتكويـــن الداخلي للفرد، وهو ما يعني أن باريتو يحاول أن يجعل العناصر الفـــردية البيلوجـــية والسيكولوجية أساسا لكل التكوينات الثقافية والحضارية الخارجـــية، وهو ما يعني تأكيدا على المداخل الفردية التي تذهب إلى أعتبار الفرد أصلا للوجود الاجتماعي. وفي هذا الصدد نجد أن فلفريدو باريتو يعيد إلـــى الأذهـــان نفـــس المداخل الفردية التي أكد عليها ماكس فيبر وبرنسلاو مالينوفسكي. حيث يذهب فيبر إلى القول بأن القيم من داخل التكوين الفردي هي التي تشكل أساسا للوجود الاجتماعي. فالقيم البروتستنتية هي التي شكلت

مـــن خلال الفرد النظام الرأسمالي الحديث. هذا في حين نجد أن ماليوفسكي يؤكـــد أن ســـعي الفرد لأشباع حاجاته البيلوجية التي تتطلب اشباع، يودي كنتيجة تالية إلى صنع الحضارة والثقافة ليس من خارج الذات الفردية، ولكن مـــن داخـــل التكوينات العميقة داخل عمق الذات الفردية. ذلك يعني أنه وإن اخـــتلف العلمـــاء عن بعضهم البعض في تحديد طبيعة العناصر التي تختار كمبادئ مفسرة للوجود الاجتماعي والتفاعلات التي تتم في إطاره، فإن هناك اتفاقا علي انطلاق هذه المبادئ أو المتغيرات من داخل الفرد إلي المجتمع.

يبقـــي بعـــد ذلك أن نحدد طبيعة هذه الرواسب، ثم ما هي الوظائف الرئيســـية التـــي تقـــوم بهـــا في اطار الوجود الاجتماعي الحي والمتفاعل. استكشـــاف وجهـــة نظر باريتو في هذا الصدد، يصل بنا إلى أنه يطرح ستة فئات من الرواسب. باعتبارها الرواسب الحاكمة لديناميات استقرار المجتمع وتغيره، هذه الفئات يمكن ذكرها فيما يلي:

١- الميل الغريزي لتأسيس الترابطات.

ويعنـــي المـــيل إلى تأسيس الترابطات القدرة علي التفكير، والإبداع والخيال، وامتلاك العبقرية، والأصالة. وهي القدرات التي لها ممتالياتها التي تنعكس في شكل دفع هذه الفئة من الرواسب للتقدم الانساني، وهو المفهوم – التقدم- الذي يحدده فلفريدو باريتو(٢٣).

وتقـــود غرائز رواسب الترابط الميل إلي تأسيس الترابطات بين كل أنواع العناصر المشتتة. وذلك بدون أي معرفة مسبقة عن الصلات الجوهرية التـــي بيـــن هـــذه العناصـــر. ويرتـــبط بذلـــك الميل إلى التجديد، وتأسيس الاخـــتراعات، وصياغة الأطر العامة وبناء المشروعات. ويعمل هذا الميل لتحقيق هذه الغايات بالاستناد إلى المهارة، الدهاء بدلا من الاصرار والعناد. ويعمل هذا الميل أيضا بالطرق غير المباشرة وليست المباشرة. ويميل البشر الذيـــن توجد لديهم هذه الرواسب بقوة إلي تجنب الصراع الصريح، ويميلون إلـــي الدوران حول المشاكل والعقبات، لكنهم يجفون من المواجهة المباشرة لها(٢٤).

وحسبما يذهب باريتو فإن محاولة تحليل هذه الفئة من الرواسب تكشف أنها تضم ثلاثة عناصر أساسية، هذه العناصر هي:

(أ) الميل إلي تأسيس الارتباطات بين العناصر المشتتة كما أشرنا.

(ب) البحث الدائم عن الارتباطات والارتباطات الأفضل.

(ج) الميل إلي الاعتقاد في أنهم ينجزون ما هو متوقع منهم.

ويكشف البحث في طبيعة هذه الفئة أنها ذات طبيعة تجريبية، ليس بالمعنى التجريبي – المنطقي، ولكن بمعنى محاولة إجراء كل أنواع الارتباطات، وتأسيس الصلات والعلاقات بين الأشياء وذلك من أجل الوصول إلى اكتشافات جديدة وغير متوقعة، فهم عادة ما ينجزون الأشياء غير المتوقعة. ومن الطبيعى أن تؤدى نتائج هذه التفاعلات إلى تحقيق التقدم. ويؤكد باريتو أن راسب الترابط يعتبر هو الأساس المشترك بين الثيولوجيا، الميتافيزيقا، العلم التجريبي، حيث يمكن اعتبار هذه الأنواع الثلاثة من النشاط– باحتمال كبير– تجليات نفس الحالة العقلية. ومع ذلك فنحن لا نعرف كيف يمكن للانسان، الذي يمتلك ذات الحالة العقلية أن يتجه إلي تأسيس نشاطات مختلفة تماما عن آخر يمتلك ذات الحالة العقلية.

وبرغم الانبثاق عن نفس الظروف أو الحالة السيكولوجية فإن هناك عائقا لا يمكن تجاوزه بين ما هو منطقى وما هو غير منطقى. فمثلا إذا ظهرت (أ) في حالة ارتباط دائم مع (ب). فإن العلم المنطقى– التجريبى يستنتج أنه من المحتمل بدرجة عالية أن يستمر هذا الارتباط. حيث نجد استمرارا فعليا لظهور المتغيرين مع بعضهما. غير أنه ليست هناك ضرورة يمكن نسبتها إلي هذه القضية، حيث نجد أن الانسان يفرض بقوة شيئا ما – ليس تجريبيا– على القضية، وهو تأثير الايمان. ومن الطبيعى أن يضيف العالم المبدع شيئا ما، فهو يتخيل، ويخترع غير أن ذلك لا ينشأ عن فراغ. وإنما نجده في جهده هذا موجها بتخميناته وافتراضاته وتصوراته القبلية. ومع ذلك فإننا نجد أن باريتو يؤكد أن التجربة في هذه الحالة سوف تظل

باقــية لكــي تصحح أي خطأ قد ينشأ عن العواطف التي قد يخضع الباحث لتأثيرها.

وعلــى النقــيض من ذلك فإننا نجد أن العواطف تلعب دورا رئيسيا بالنسبة لغير العالم، حيث تتم الموافقة على القضايا – فى هذا الاطار – بالنظر إلــى الايمــان، فــتلك هي القاعدة التى يخضع لها غالبية البشر. وكلما كان الاتصــال قويــا بيــن العالم الباحث والبشر في المجتمع، كلما كانت هناك احتمالية أكبر فى إمكانية استسلامه للتصورات الشعبية، ولكما كان أكثر ميلا لأغفال الصراع الذي قد ينشأ بين التجربة والمعتقدات المستندة إلي العاطفة. وذلــك هــو ســبب أن الدارس في العلوم الاجتماعية يجد من الصعب عليه التمســك بالأسلوب المنطقى – التجريبي أكثر من الكيميائي أو العالم الطبيعي علي سبيل المثال[٢٥].

٢- غريزة استمرار الجماعة أو التجمع.

وتشكل هذه الفئة من الرواسب جوهر المجموعة الثانية. وهى مضادة فــي فاعليتها لرواسب المجموعة الأولي. وإذا نظرنا إليها من الداخل فسوف نجد أنها تضم العناصر التالية:

(أ) دوام العلاقــات بيــن الشــخص والأشــخاص الآخريــن، أو بين الفرد والآخرين.

(ب) العلاقات التي تسود الجماعات الأسرية والقرابية.

(ج) العلاقات بالأماكن التي يكون الشخص قد ارتبط بها.

(د) العلاقات التي تسود الطبقة الاجتماعية.

(هـ) استمرار العلاقات بين الأحياء والأموات.

(و) اســتمرار العلاقات بين الشخص المتوفى وبين الأشياء التي كانت تنتمى إليه أثناء حياته.

(ز) بقاء واستمرار التجديدات التي تمت.

(ح) استمرار أو بقاء الأشكال والتشكلات.

(ط) تحول العواطف إلي حقائق موضوعية.

(ى) التشخيصات Personifications.

(ل) الحاجة إلي تجريدات جديدة(٢٦).

ومن الطبيعى أن تكون فعالية فئة الرواسب الثانية المتعلقة باستمرار التجمعات Persistence of Aggregates، مضادة لفاعلية المجموعة الأولى من الرواسب. ذلك لأن الفئة الثانية من الرواسب تتضمن استمرار الترابطات بمجرد تأسيسها، هذا إلى جانب التسمك بها. أيضا من خصائص أفراد هذه الفئة السلوك المباشر، والرغبة في الصراع الصريح والموافقة عليه. هذا إلى جانب الميل إلي تجاوز العقبات وليس الدوران حولها، ثم الميل إلى استخدام القوة، أيضا الميل إلى النزعة التقليدية بدلا من الميل إلي التجديد. وتضم هذه الفئة أيضا غياب المهارة والدهاء عن أصحابها(٢٧).

بالإضافة إلى ذلك يعنى راسب استمرار التجمعات التأكيد على العادات والتقاليد، وكافة الممارسات والمعتقدات الأخرى التى تستمر عبر فترات طويلة من الزمن. ويعد وجود رواسب الاستمرار وتعمقها وانتشارها فى إطار الجماعير مسألة أساسية بالنسبة لنظرية باريتو عن التوازن الاجتماعى أو دورة الصفوة. ويفسر لفنجستون Livingston ذلك فيؤكد أن اتجاه الفعل (الغريزة العاطفة، الدافع) هو المسئول عن خلق الوحدات أو العناصر، ذات الأهمية الرئيسية والثانوية فى تحقيق التوازن الاجتماعى. إذ يحدد عمق العاطفة أو الدافع ما يمكن أن نسميه عادة بالطابع Character على المستوي الفردى، وهو الذي يشكل نموذج الحضارة أو الثقافة التى تسود مجتمعا معينا. وقد يؤدي تجمع العناصر المستمرة إلى الاعتقاد فى الشر devil أو الديمقراطية، فالأمر سواء بالنسبة لباريتو، فهى عناصر غير منطقية يمكن استيعابها بصورة سلبية والموافقة عليها، ومن ثم التمسك بها بقوة. ثم يحاول باريتو تتبع هذه العناصر حتى يسلمها إلى مصدرها الكائن فى الغريزة، إذ يؤكد باريتو، أنه بعد تشكل الجماعة، فإن الغريزة تبدأ فى أداء دورها بطاقات متنوعة، وذلك لمنع الأشياء أو العناصر المت[illegible] من

التفكك. ويمكن مقارنة هذه الغريزة بصورة فجة بفاعلية القصور الذاتي في الميكانيكا، ذلك أنها تميل إلي مقاومة الحركات التي تثيرها غرائز أخرى.

وإلى حد كبير تصبح لمجموعة الرواسب هذه فعاليتها بين الجماهير. ويعتمد التوازن الاجتماعى، وأيضا انهيار احدى الصفوات أو صعود أخرى علـى درجة النجاح التى تستطيع أن تحققه من خلال ابتكار الصفوة لصياغة يمكن بواسطتها أن تخاطب عواطف الجماهير. فى مقابل ذلك تقف الجماهير موقفـا سلبيا فيما يتعلق باستيعابها لهذه العواطف المتغيرة أساسا ثم الاحتفاظ بها. وتكمن فعالية الصفوة أساسا فيما يتعلق بالعواطف المتغيرة، حيث تعتبر الصـفوة فعالة فى استغلال هذه العواطف من خلال صياغتها الذكية. وطالما أن العواطـف تظـل غير متغيرة، فإن نفس الأمر يحدث بالنسبة للجماهير بغض النظر عن تغيير الصفوات لمواقعها. وفى التحليل النهائى، فإننا نجد أن الشـروط الوجوديـة للجماهـير ليست هي التى تحدد عواطفها، ولكن على العكـس مـن ذلك تماما، إذ تظل الجماهير دائما عمياء وغير عقلانية وذلك لأنها محكومة بواسطة عواطف، غرائز، دوافع، او قوى لا شعورية تدفعها، فالجماهير محكوم عليها أن تظل كذلك دائما، وهذا قدرها[٢٨].

ذلـك يعنى أن باريتو يرى أمامه دائما صفوتين، وجماهير خاضعة. صـفوة تحكـم مزودة برواسب الترابط، تجدد وتملك مهارة الحكم وأساليب الخـداع للمحافظـة على السلطة في يدها. غير أن هذه الصفوة قد تضعف رواسـبها بمـرور الأجيال، ومن ثم يصبح مقدورا عليها أن تخلى الطريق لصـفوة جديـدة تمـتلك رواسـب قويـة تؤهلها للسيطرة والحكم. كل ذلك والجماهير بعيدة تماما عن اللعبة السياسية، تحكمها فئات من الرواسب مختلفة تمامـا. حيـث رواسـب تؤكد على ما هو قائم. وذلك يعنى أن ثمة رواسب يطـرحها باريتو للتغيير وفرض الانهيار على الوجود الاجتماعى القائم فى مواجهـة رواسـب أخري تفرض الحفاظ عليه والتمسك به. غير أن القضية الحـادة التـي تواجهنا في هذا الصدد تتمثل في أن باريتو وأن أوضح تبدل

رواسب الصفوة ومن ثم دورة الصفوة إلا أنه لم يوضح بصورة حاسمه كيف تدوم عواطف الجماهير من غير تبديل أو تغيير.

٣- الحاجة إلي التعبير عن العواطف بأفعال خارجية.

وتشـــكل رواسب هذه الفئة المجموعة الثالثة من الرواسب، ووظيفتها الأساسية ربط الانسان الفرد من داخله بالوجود الاجتماعي الخارجي بالنسبة له ومن مظاهر هذه الرواسب الأبعاد التالية:

(أ) الحاجـــة إلـــى فعـــل شئ ما يعبر عن الذات الانسانية من خلال تأسيس الرابطات المختلفة، ويدخل في هذا الاطار أيضا الانجذاب الديني[٢٩].

(ب) اللجـــوء إلى طقوس معينة مثل التصفيق أو صيحات الغضب أو المرح للتعبير عن مشاعر وعواطف وتفاعلات داخلية[٣٠].

(ج) تعنى هذه المجموعة أيضا حاجة الإنسان إلى التعبير عن عواطفه بأفعال خارجية يدخل في نطاقها التبريرات العقلية أو التعبير عن الذات[٣١].

(د) مـــن شأن هذا التعبير الخارجي أن يدعم هذه العواطف إلا أنه قد يثيرها أيضا. فالبشر قد تكون لديهم حاجة فى بعض الأحيان إلى فعل شئ ما. وهم إذا فعلـــوا شـــيئا ما، فإن من شأن ذلك أن يدعم هذه الحاجة إلي التعبير عن مجموعة الرواسب هذه[٣٢].

غير أن التعبير بأفعال خارجية عن العواطف الداخلية قد يتخذ شكلين رئيســـين، الأول التعبير الفردى، الذي يدعم توازن الذات الفردية. فقد يعانى الفـــرد مـــن توترات معينة، قد تتخذ شكل الانفجار الغاضب مما يدفعه إلى سلوكيات اجتماعية محددة، يستعيد فى أعقابها الانسان توازنه مباشرة، ومن ثـــم فهـــذا الشـــكل عادة ما يستهدف الحفاظ على الذات الفردية فى حالة من التوازن. أما الشكل الآخر فيتمثل فى التعبير عن الذات من أجل الآخر، يدخل فـــى ذلـــك التعبير بسلوكيات معينة للتعبير عن حب الآخرين، أو كراهيتهم، وطلـــب القبول أو الموافقة منهم. فى كل هذه الحالات فإن التعبير عن الذات الفـــردية لا يســـتهدف فـــي هذه الحالة توازن الذات الفردية، ولكنه يستهدف

بالأســـاس توازنـــا اجتماعـــيا. واســـتقرارا لوجود الانسان في إطار السياق الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية التي تغلف وجوده.

٤- الرواسب المرتبطة بالآلفة الاجتماعية.

وتشـــير مجموعـــة الرواســـب هذه إلى الحاجة للاتحاد والتوافق مع الآخرين في إطار حالة الاجتماع، ويدخل في اطارها المظاهر التالية:

(أ) الاشفاق علي الذات ورفض المعاناة.

(ب) الترهب والزهد وعمق البعد الغيرى لدى الانسان والتقشف.

(ج) قبول مشاركة الآخرين للفرد في ثروته الخاصة.

(د) الحاجة إلي قبول الجماعة واستحسانها.

(هـ) عواطف الشعور بالتفوق علي الآخرين.

(و) مشاعر الشعور بالدونية بالنسبة للآخرين[٣٣].

ويؤكـــد باريـــتو أن هـــذه الفـــئة من الرواسب تتكون من مجموعة الرواســـب التـــى ترتبط بالحياة فى المجتمع، أيا كان المعنى الذي يوحى به ذلك. ثم يضيف أننا نلاحظ الحاجة إلي اتحادات معينة بين معظم البشر، وهذه الاتحـــادات من أنواع كثيرة. بعض هذه الاتحادات قد يكون لمجرد التسلية، بينما بعضها الآخر قد يتأسس لتحقيق فوائد تعود على الأفراد الأعضاء، بينما هـــناك جماعات واتحادات أخرى ذات أهداف دينية أو سياسية أو أدبية. إذا فلدى البشر حاجة قائمة ودائمة لتأسيس اتحادات معينة. وسواء التحق الانسان منا بالكنيسة أو الحزب السياسى أو النادى الاجتماعى... الخ، فإن نفس الشئ قـــائم، طالمـــا أن الـــتحاقه بهذه الجماعة أو الاتحاد، يتحدد بواسطة الحاجة المشتركة إلي ذلك.

ويحـــاول باريـــتو أن يحصل الفئات الفرعية الأخرى لهذا الراسب فـــيؤكد أن مـــنها الحاجة إلي الاتحاد، التوافق، التقليد، هذا إلي جانب توسيع نطـــاق الاشـــفاق على الذات ليشمل الآخرين. كل ذلك يدعم ظاهرة النزعة الانســـانية، مـــثال علي ذلك غريزة رفض المعاناة (التى تعنى الشعور بعدم

الرضـــا عـــند رؤية المعاناة سواء كانت هذه المعاناة مفيدة أم لا) وغالبا ما تلاحـــظ هـــذه العاطفـــة فى الأفراد الضعفاء، الخاضعين، فإذا توافرت لهم الفـــرص لـــتجاوز هذه المعاناة، فإنهم عادة ما يميلون إلى التصرف بقسوة، وذلـــك يفســـر ملاحظـــة يسمع عنها الانسان فى العادة وهى التى تتعلق بأن المرأة عادة ما تكون رقيقة طيبة القلب غير أنها في ذات الوقت قد تصبح – في ظل ظروف معينة – أكثر قسوة من الرجل.

ويدخـــل فى إطار هذه الفئة أيضا عواطف، ومن ثم رواسب الترتيب الاجتماعـــى، أي تدريـــج البشـــر إلى متفوقين وغير متفوقين، راغبين فى استحسان الجماعة أو زاهدين فيه. هذه العواطف يراها باريتو ظاهرة انسانية فـــريدة قـــام استكشـــاف قـــدر كبـــير منها. وبرغم أن باريتو قد نسب إلى الممارســـات الصـــوفية فوائـــد متنوعة، حيث تناولها باعتبارها نتائج لذات الراسب، ومن ثم اعتبرها سلوكا لا عقلانيا أساسا، غير أنه فشل– كما حدث فـــى أماكـــن أخرى– أن ينبه إلى إمكانية أن تكون هناك أفعالا ذات طبيعة تقشـــفية، ومـــع ذلـــك فهي عقلانية أساسا. على سبيل المثال الاضراب عن الطعام من أجل أهداف سياسية معينة، وهو الأمر الذي يختلف فى معناه عن كـــل الأمثلة التى اختارها لكى تبرز هذه الطبيعة اللاعقلانية. فالزهد والنسك كما يراه باريتو هو انحراف عن غريزة الألفة الاجتماعية Sociality، حيث أنه بدون هذه الغريزة فإن المجتمع الانساني قد يتوقف عن الوجود[٣٤].

٥– رواسب تكامل الفرد مع توابعه.

وتـــتعلق هـــذه الفـــئة بوجود نوع من التكامل بين الفرد وأتباعه أو ممتلكاته. وهى مجموعة الرواسب التى تعمل على دفع الانسان لاتيان أفعال معينة تعمل على استعادة التكامل إذا طرأ عليه تغيير، مثل الأفعال التى تعتبر مصـــدرا للقانون الجنائى[٣٥]. وتتكامل هذه الفئة من الرواسب مع المجموعة الـــرابعة الســـابقة، وتشـــير إلى العواطف (الفطرية أو المكتسبة) التى تدفع الانســـان إلـــي الدفـــاع عن ممتلكاته، والنضال من أجل زيادتها كميا. ومن

الطبيعـــي أن يؤكـــد باريتو علي العلاقة القائمة بين هذه الرواسب والتوازن الاجتماعي.

ويحاول باريتو أن يوضح ذلك، فيؤكد أنه فى النظام العبودى كما هى الحال فى اليونان القديمة، فإن الشخص ولو لم يكن مالكا للعبيد، فإنه قد يشعر أن مالك العبيد قد أخطأ لأنه وافق على أن يستولى الآخرون على العبيد منه. وذلك ينبثق من عاطفة مقاومة أى تغير فى التوازن الاجتماعى السائد. ومثال التوازن الجزئى يتجسد فى الشكل الذى يستطيع فى إطاره المواطن اليونانى أن يحيل كل اليونانيين الآخرين إلى رجالا أحرارا وكل البرابرة على عبيد. أمـــا شـــكل التوازن المثالى الكلى، فهو الشكل الذي يسود فى بعض الفترات التاريخـــية الـــتى شهدت الحاجة إلى الإلغاء الكلى لنظام العبودية. فإذا اهتز الـــتوازن القائم أو تغير، فإن هناك قوى تبدأ فاعليتها لكى تستعيد تأسيس هذا الـــتوازن. وهـــذه القـــوي بالطـــبع هي العواطف التى تكشف عن نفسها فى الأشـــكال العديـــدة مـــن الرواســـب. وهى الرواسب التى تختفى تحت قناع المشتقات. ومن الطبيعى أن لا تعرف الجماهير شيئا عن (التوازن)، (القوى) .. الخ، إذ أن هذه تعتبر مصطلحات علمية يستخدمها العالم الباحث. فمفاهيم مـــثل (العدل)، (الظلم)، (الحق)، (الخطأ)، هى عبارة عن كلمات يستخدمها البشـــر المتنورين لكى يعبروا عما إذا كانوا يوافقون على شئ ما أو أن شيئا ما يؤذى عواطفهم. وفى هذا الصدد لم يحدد لنا باريتو شيئا عن تصوره فيما يـــتعلق بالـــتوازن الاجتماعى. غير أن الأمثلة والتوضيحات التى استخدمها تتلاءم وتصوره للانسان باعتباره كائنا غير عادل. فالانسان من وجهة نظر باريتو ليس ملهما بواسطة مثل كالعدل، والحق، ولكنه مدفوع بغريزته للحفاظ علـــى الذات. وهى غريزة يشترك فيها مع الحيوان. وليس لها أية صلة بأية مثل تتعلق بالعدل أو الحق[٣٦].

فالحفـــاظ علـــى الـــذات- وهـــو مفهوم يشبه إلى حد كبير المفاهيم البيلوجية – هو الذي يتلاءم مع هدفه. ذلك لأن هذا المفهوم يساعد على إبراز الطبـــيعة الشـــبيهة بالطبيعة الحيوانية فيما يتعلق بالفعل أو السلوك البشري

بصـــفة عامة. ومرة أخرى نجد أن باريتو يحاول أن يحذف تماما من قضية الـــتوازن الاجتماعى أي عنصر يتصل من قريب أو بعيد بالمصلحة بالمعنى العقلانــــي لذلــك. فهـــو يتجنب باصرار النظر إلى التصرفات والسلوكيات البشرية بأي صورة قد تعكس الاقتراب من درجة معينة من العقلانية(٣٧).

٦- راسب الجنس.

وفـــي هـــذا الصدد يكتب باريتو أن مجرد الرغبة الجنسية – برغم كونهـــا قوية فى الجنس البشرى- ليست ذات أهمية بالنسبة له. ويؤكد باريتو أن راســـب الجـــنس قد يكون منطقة للغريزة، فيختفى حينئذ قناع من الزهد والتنســك، فهـــناك بعض البشر الذين قد يبشرون بالفضيلة كوسيلة للتسامى بالنســـبة لأفكـــارهم خاصــــة ما يتعلق بالجنس. وهنا نجد أن باريتو يستخدم بوضـــوح مفهوم الراسب باعتباره اظهارا أو تجليا لباعث غريزى له جذوره فـــي العمليات الجسمية، البيلوجية والكيميائية. فإذا كان باريتو لم يحدد – كما بدا ذلك- عما إذا كانت الغريزة قوية بيلوجية أو عاملا ثقافيان فإنه فيما يتعلق براسم الجنس نجده يؤكد على طبيعته البيلوجية. إذ تؤدي غريزة الجنس إلى ظهـــور الأفعال ذات الطبيعة الدائمة، والتى استمرت خلال التاريخ، ومازال لهـــا وجودهـــا الـــبارز فى الوقت الحاضر. وتعتبر هذه الأفعال والرواسب الكامنة خلفها محاولات للسيطرة على غريزة طبيعية أو تنظيمها أو قهرها أو التســـامى بها. بل أن الأمر قد يتصاعد ليصل إلى نتيجة مؤداها وجود ديانة للجـــنس، كمـــا فى كل الديانات الأخرى. ذلك يعنى أن عدم مرونة الأشكال الاجتماعـــية للجـــنس تـــؤدي بالتأكـــيد إلى الإنحراف والنفاق. هذا وتعتبر الـــتحريمات العديـــدة المـــتعلقة بالجـــنس، وبالمثل أشكال الاحتشام المفرط، والامتـــناع، والتنســـك، مجـــرد أساليب عديدة لاخفاء الرغبة الجنسية، وتلك أساليب عديدة لردود فعل غير منطقية لقوي داخلية ذات قوة عارمة.

وهـــنا نجد تأكيد باريتو الذي يذهب إلى أن راسب الجنس له فاعليته ليس فقط من خلال الحالات العقلية التى تبحث عن اتحاد الأجناس، أو التريث في إعادة جمع هذه الأشياء أو العناصر. ولكن لها فاعليتها أيضا في الحالات

العقلية التى تبرهن على انتهاك. أو رفض أو كراهية المسائل الجنسية. وهنا نجد أن زايتلن ينتقد باريتو حول هذا المنطق فى التفسير مؤكدا أن الانسان يبحث سدى إذا حاول أن يفسر بعض الممارسات الصوفية أو الوصايا أو حتى تحركات معينة، الخ، عن طريق نسبتها إلى الظروف الاجتماعية والثقافية. يعنى ذلك أن غياب مثل هذه المحاولة سوف يطرح مسألة تصدمنا للغاية، حينما يحاول الباحث أن يدرك أن باريتو قد شرف بأن يكون أحد مؤسسى التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع. وفى الحقيقة لا يجد الباحث منا أي تحليل من هذا النوع فى كتابات باريتو، ولكن ما يجده هو مجرد توضيحات للرواسب ذات الأهمية البارزة، ومن ثم نتعلم منه أن الراسب يكون فعالا من خلال الحديث والكتابة، ونجد له ظلاله فى الأدب. وحينما يتحدث البعض عن الأدب اللاأخلاقى فإن هذا فى غالب الأحيان يعتبر مجرد نوع من النفاق، حيث يجعل البشر من الكلمة وليس من الشئ ذاته الهدف الأساسى. أنهم قد يفعلون الشئ، لكنهم يتجنبون الحديث عنه، وهنا نجد أن باريتو يوكل إلى نفسه مهمة المغامرة بخلع الأقنعة. حيث تعتبر الفضيلة والأخلاق الجنسية ليست إلا بلاغة لغوية مصاغة بدرجة واعية لكي تخفي جوهر الانسان.

ويعتبر راسب الجنس راسم دائم ككل الرواسب الأخرى، وذلك واضح على ما يذهب باريتو من الأنماط الدائمة لرد الفعل الذي يشاهده الانسان خلال التاريخ كنتيجة لانتهاك بعض هذه التحريمات. حيث تسلم هذه الانتهاكات إلى تأسيس معتقدات ديانة الجنس كردود فعل لا تختلف كثيرا عن ردود الفعل التى تتم نتيجة لانتهاك ديانة أخرى. حيث ينبغى النظر إلى التغيرات عبر الزمان فيما يتعلق بالأخلاق الجنسية والتنوع الذي نواجهه من ثقافة إلي أخرى باعتباره مجرد تغير في الشكل(٣٨).

وبالنسبة لباريتو يعكس راسب الجنس بصورة قوية الطبيعة العامة للرواسب، حيث القوة الدائمة التي لا يمكن اعاقتها، وأيضا التي لا سيطرة

للإنسان عليها أو أن سيطرته ضعيفة عليها، فالمشتقات هى التى تتغير فقط. غير أن المشتقات ليس له تأثير أساسي علي طبيعة وجود الانسان[٣٩].

ويؤكد تيماشيف أن تصنيف باريتو على ما أوضح أحد دارسيه (يمثل عمــلا جادا وهاما لواحد من الرواد) فعلى الرغم من الإضافات والتعديلات التــى أدخلــت علــى هــذا العمل الهام، إلا أنه من غير المتوقع أن يحاول الباحــثون تطويــر هذا الجانب من أعمال باريتو نظرا لما ينطوى عليه من أخطاء واضحة.

حيــث كــان تصنيف باريتو معتمدا إلى حد ما على دراسته لبيانات مســتمدة أساسا من مؤلفين قدامى. فقد ذهب إلى أن هناك تراثا هائلا يصور الحياة الواقعية عموما، وبالتالى فالتركيز على دراسة هذا التراث الكلاسيكى لا يفسح مجالا للتحيز. ولما كانت الرواسب هى القضايا الدائمة (العامة) فمن اليســير اشتقاقها من التحليل الدقيق للتراث الكلاسيكى. وكل عنصر نختاره من هذه المصادر يتعين أن نفسره منذ البداية بأنه مظهر لعاطفة معينة، ومن ثــم نخضــع العناصــر الجزئية للمقارنة، ثم نؤلف من مجموعات العناصر المتشــابهة فــئات محددة أو فئات فرعية. والواقع أن هذا الإجراء (والذي) يصــعب اعتــباره خطوة متقدمة على ما يعرف الآن بتحليل المضمون، هو أقرب شئ للمنهج الاستقرائي الذي يمكن أن نعثر عليه في أعمال باربتو[٤٠].

ثالثا: المشتقات، التعبير الظاهرى عن عواطف كامنة.

اســتنادا إلــى مــا يذهب إليه باريتو تعتبر المشتقات هى التعبير أو التجلــى الخارجــى للرواسب. ويحاول باريتو أن يحدد المشتقات فيؤكد أن البشر يحتاجون فى العادة أن يجعلوا سلوكهم غير منطقى يبدو منطقيا. ومن ثــم فهم يقدمون حينئذ تفسيرات منطقية زائفة لأفعالهم، ثم يعتقدون عن خطأ فى هذه التفسيرات باعتبارها سببا لسلوكهم. وتشتق المشتقات قوتها ليس من الاعتبارات المنطقية التجريبية ولكن من العواطف[٤١].

وتنتشـــر المشـــتقات، لأنهـــا بالإضـــافة إلى الرواسب، تعتبر تجليا للعواطـــف. وهـــى منتشرة ليس لأنها مشتقة من العواطف الخاصة بالأفراد، ولكـــن لأنهـــا تســـتند إلـــى العواطف السائدة، أعنى لأنها تستند إلى سلطة المأثورات السائدة فى المجتمع، أو إلى سلطة الأفراد المسيطرين فيه، أو إلى ســـلطة كائنات ماوراء الطبيعة. غير أن كل هذه المشتقات يعتبر مجرد لغو كلامـــى لا ثقة فيه يخفى وراءه السبب الحقيقى المتمثل في العواطف. ويؤكد باريـــتو أنـــه حيـــنما يرغـــب دارس الســـلوك البشرى أن يدرس الظواهر الاجتماعية فإن عليه أن يهتم باظهارات أو تجليات النشاط الاجتماعى، أعنى المشـــتقات، ثـــم يؤكد أنه لا يدهشنا أن نعرف أن الراسب يعتبر قوة تتجاوز الـــثقافات المخـــتلفة. أو بعبارة أخرى، فإن الراسب تعتبر المحور الرئيسى للفعل فى كل الثقافات (الصينية، الإسلامية، الكالفنية، الكاثوليكية أو الهيجلية أو الماديـــة). فمـــثلا نجد أن كل هذه الثقافات تجفل من السرقة. غير أن كل مـــنها يقدم تفسيرا مختلفا لسلوكه. وبعبارة أخرى، فإن الحالة الحقيقية تتمثل فـــى وجود عدد من المشتقات التى ترتبط براسب واحد له فاعليته فيها كلها، مع التأكيد علي نتيجة واحدة توافق كل هذه المشتقات أو التفسيرات(٤٢).

وبالـــنظر إلى هذه التفسيرات- المشتقات المتنوعة- التى تقدم لنفس الخصـــائص الثابتة، يستنتج باريتو أن السبب الحقيقى للسلوك ينبغى البحث عـــنه في الرواسب الدائمة والكامنة وراء المشتقات المتباينة. ثم يبرهن على أن اتـــباع المـــدارس الفكرية المختلفة يشتركون فى الحاجة إلى الحفاظ على تكـــامل شخصياتهم وأيضا الحاجة إلى الحفاظ علي الاعتبار الذاتى، وهو ما يعني أن مجموعة الرواسب من الفئة الرابعة قادرة علي تفسير سلوكها.

ثـــم يؤكـــد باريـــتو أن البشـــر فـــى كل مكان يعتقدون فى الحقيقة الموضـــوعية المـــتعلقة بالآلهة والأرواح والتقدم والحرية والعدل. قد تتغير أسماء هذه العناصر مثلما تفعل النظريات الدينية والفلسفية والأخلاقية لتفسير هذه المعتقدات. غير أننا سوف نكتشف دائما وجود اعتقاد مشترك يؤكد على وجـــود جـــذور كل هذه التكوينات المتباينة في عنصر واحد، ثابت ودائم لا

يتغـــيرن وهو فى هذه الحالة الفئة الثانية من الرواسب التى تؤكد علي الميل المحافظ لاستمرار الجماعة أو التكامل الاجتماعى.

ويكـــرر باريـــتو أنـــه من غير المفيد، أو من قبيل ضياع الوقت أن نـــناقش مصـــداقية مذهـــب أو عقيدة مع معتنقيه. فلم تنهار المسيحية بسبب البراهيـــن التى تناقش الواقعية التاريخية للنبى عيسى عليه السلام. ذلك يعنى أن على الاستراتيجية العلمية أن تتبع عديدا من أنساق المعتقدات عن طريق نسبتها إلى مصادرها المشتركة المتمثلة فى الرواسب الأساسية، ذلك فقط هو الـــذي يمكـــن أن يســـاعد علي تقدم العلم، وأيضا علي تحقيـــق درجة من التنويـــر(٤٣).

غير أن السؤال الذي نطرحه فى هذا الصدد يتمثل فى الأسلوب الذي وصـــل من خلاله باريتو إلى تحديد المشتقات. وحسبما يذهب لويس كورز، نجده يؤكد أن باريتو قد وصل إلي تحديده للمشتقات من خلال فحص مختلف المذاهب التى ترتبط بذات الفعل أو السلوك، على سبيل المثال فهو قد فحص العقـــيدة المســـيحية أو الـــنظرية السياسية الليبرالية. ومن خلال فحص هذه النظريات نجده يعزل العناصر التى تتصل بمعايير العلم التجريبى المنطقى، ومـــن ثـــم نجده يستبعد العناصر غير العلمية، مؤكدا على أعتبارها عناصر دائمة أو رواسب، فاصلا عن عناصر أخرى متغيرة أو مشتقات. حيث تظهر المشتقات فقط حينما تظهر الحاجة إلى برهنة أو حوار أو تبرير أيديولوجى. وحيـــنما يتواجد التبرير الأيديولوجى، فإننا نجد أن التحليل الذي قدمه باريتو يبحث عن العناصر الدائمة نسبيا والكامنة وراء الرواسب(٤٤).

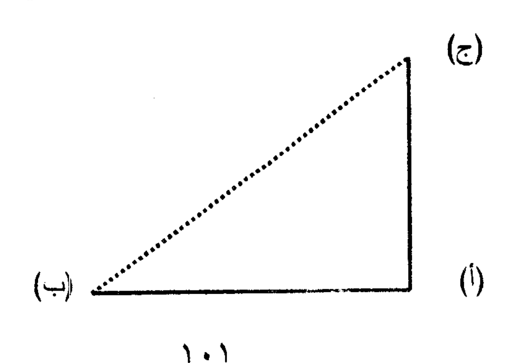
غير أننا إذا اتفقنا على أن كل الأفعال أو التبريرات التى تقدم تستند فـــى التحلـــيل النهائى بشكل ما إلى الرواسب أو العواطف. فإن السؤال الذي نطرحه يتعلق بطبيعة العلاقة بين هذه المكونات الثلاث. فى هذا الصدد نجد أن باريـــتو يؤكـــد علـــى الفارق بين نظرته للأفعال الانسانية، وبين التفسير العقلـــى الذي يقدم لها. إذ يفترض هذا التفسير الأخير أن الناس يتجهون إلى التفكـــير أولا، أو أنهم يصوغون- بداءة- الأفكار والنظريات، ثم يتصرفون

بعـــد ذلك وفقا لها. إلا أن باريتو يذهب إلى أن السلوك يتبع عملية عكسية، فالتصـــرف يسبب التبرير العقلى. ذلك يعنى أن باريتو يذهب إلى أنه ليست هـــناك علاقة سببية مباشرة بين النظرية والفعل، فكلاهما ينتج عن عواطف أساســـية تبدو فى الفعل بطريقة دائمة أو ثابتة فى حين تتجلى العواطف على مستوى النظرية في التبرير العقلي علي نحو غير منظم(٤٥).

والحقـــيقة فـــى رأى باريتو أن البشر لا يقومون فى البداية بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم، ولكن العكس هو الصحيح. فالبشر يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكار ونظريات تـــبرر تصرفاتهم(٤٦). وتأكيدا لذلك يذهب بيتروم سروكن إلى القول بأن فئة الرواســـب هـــى التـــى تحدد طبيعة الأفعال الانسانية، التى تعتبر إلى حد ما تجلياتا لهذه الرواسب، وفى اطار الكائنات البشرية تتخذ هذه التجليات أيا من الأشكال التالية. فإما أن تتخذ شكل الأفعال التى لا تتبعها ردود فعل كلامية، أو عملـــيات ذاتية شعورية كالغريزة أو الأفعال التلقائية. بحيث نوضح ذلك بالشكل التالي: (أ) الرواسب (أ) يؤدي إلي (ب) السلوك.

راسب (أ) ——————◄ (ب) فعل أو سلوك

أمـــا الشكل الثانى فيتمثل فى الأفعال التى تتبعها أيديولوجيات وردود فعل كلامية، أو بعض العمليات السيكولوجية الشعورية أو النظريات، أو تقديم الدوافـــع، المقاصـــد أو الأهداف للاقناع بالفعل. أو غير ذلك من ردود الفعل الكلامـــية الأخـــرى الصريحة والضمنية. حيث نوضحها بالشكل التالى: (أ) الراســـب يؤديا تزامنيا- فى نفس الوقت- إلى (ب) السلوك أو الفعل، وأيضا إلي (ج) ردود الفعل الكلامية. ونوضحها بالشكل التالي:



حيث تمسى ردود الفعل الكلامية هذه بالمشتقات، وهى تقود إلى علم اجـتماع الأفكار والأيديولوجية عند باريتو. أو إلي علم اجتماع ردود الفعل البشرية الكلامية.

واستنادا إلى علاقة الرواسب بالمشتقات على هذا النحو لاحظ بعض المفكرين وجود تشابه كبير بين باريتو وكارل ماركس. إذ نجد ان باريتو لم يعين قيمة كبيرة للمشتقات أو الأيديولوجيات. حيث أنها بالنسبة لباريتو ليست إلا تجليات للرواسب. فالرواسب هى أب Father الأيديولوجيات. حيث تعتبر المشـتقات نوعا من المؤشرات التى تتحول بحسب اتجاه ريح الرواسب. ولا يعتـبر تأثير المشتقات معدوما، ولكن ما نقصده أن تأثيرها أقل كثيرا عن ما يتصـوره الكثيريـن. فمـن شـأن المشتقات أنها متغيرة وأكثر مرونة من الرواسـب. بالإضـافة إلـى ذلك فإننا نجد أن نفس الراسب قد يشكل أصلا لمشتقات عديدة أو يختفي وراءها، والعكس صحيح. وفى بعض الاحيان تنتج رواسب عديدة بنفس المشتقات المتماثلة. ويمكن للمثال التالى أن يوضح هذا الموضـع، فالراسـب الذي يتخذ شكل الرعب من قتل الانسان قد يتجلى في إطار المشتقات التالية:-

لا تقتل وإلا ذهبت إلى الجحيم.
لا تقتل لأن القتل يحرمه الله.
لا تقتل لأن ذلك يعتبر لا أخلاقيا.
لا تقتل لأن ذلك عملا لا انسانيا ضد القانون والتقدم والعدل.
لا تقتل.

حيث تعتبر كل هذه المشتقات مجرد أقنعة تخفى الفاعل الحقيقى الذي يمـنع فعل القتل، وهو الراسب موضع الاهتمام، وحسب الظروف فقد يشكل الراسـب مصـدرا لعديـد من الأيديولوجيات الأخرى. وبرغم الاختلافات الكثيرة، فإن الأيديولوجيات ليست شيئا سوى مظاهر عديدة لنفس الراسب.

فـردود الفعل الكلامية للكاثوليكى الأرثوذكسى الذي لا يبيح التسامح الدينـي، وكذلـك ردود الفعل الكلامية للشيوعي المتحمس الذي يهاجم بعنف

عدم التسامح، مختلفة تماما. وبرغم ذلك، فإن رواسبهم هي ذاتها. وهي التي تتمـثل في الدافع إلى فرض معتقداتهم ومعاييرهم في السلوك على الآخرين. وتعتـبر ردود الفعـل الكلامية لكثير من الزاهدين فيما يتعلق بالجنس ذات أهمـية محوريـة، غـير أن الحقيقة الواضحة أنهم يتحدثون عن الجنس أو يعلـنون ادانـتهم القوية له. بما يوحى باعتبار ذلك مؤشرا على راسب هذه المشـتقات هـو ذاته الذي يتعلق بردود الفعل الكلامية لفعل الدعارة الذى قد يرتكبه شص خليع.

وطالمـا تعتمد الأفعال والمشتقات على الرواسب، فإنه ينتج عن ذلك سلسـلة مـن النـتائج الهامـة للغايـة فيما يتعلق بالرواسب أو بديناميات الأيديولوجيات. وتتمثل أول هذه النتائج فى أن الرواسب غالبا ما تتناقض مع بعضها البعض داخل نفس الشخص، ومن ثم فعادة ما تكون سلوكياتنا وأفعالنا متناقضـة وغـير منطقية في غالبها. فإذا حددنا الأفعال المنطقية باعتبارها الأفعـال التى يتطابق فى اطارها الفرض الذاتى المقصود لفعل ما مع النتائج الموضوعية التي تتحقق نتيجة لانجاز هذا الفعل، فإن قدرا كبيرا من أفعالنا، علـى حـد مـا يوضح باريتو أكثر من أي مفكر آخر، تعتبر غير منطقية. وباعتـبار أنـنا نـندفع لانجاز أفعالنا تحت تأثير حالة من الفعالية الواضحة للرواسب، فإننا ننجز قدرا كبيرا من الأفعال التى هى بطبيعتها غير منطقية، أو تلـك التى يتصادف أن يكون الغرض الذاتى للفعل (الأيديولوجيا) مختلفة تمامـا عـن نـتائجه الموضوعية. فهما يتطابقان فى إطار السلوك المنطقى التجريبـي فقط، أو فى مجال الانجازات العلمية. وبعيدا عن ذلك، وفى اطار بعض الحالات القليلة الأخرى، يعتبر السلوك الانسانى متناقضا وغير منطقيا أساسـا، وذلك لأن رواسبنا عادة ما تكون متناقضة بنفس القدر. ومن وجهة الـنظر المنطقـية تعتبر أفعالنا غير متسقة، وذلك لأن رواسبنا تخضع لحالة ذات طبيعة دينامية. حيث يمكن فى لحظة سريعة أن يعقب وجود راسب قوي ومسيطر راسب آخر مختلف عنه تماما. وتحت تأثير الراسب الآخر فإننا قد نتصـرف بطـريقة مخـتلفة تمامـا. وبإيجاز فإن تحليل باريتو للعلاقة بين

ديناميات الرواسب والفعل من ناحية، وبين نتائجه فيما يتعلق بالأفعال غير المنطقية للبشر من ناحية ثانية. يمثل بقدر ما، تحليلا للسلوك الاجتماعى لا نظير له.

ويمكن القول، بدرجة عالية من الثقة، بأن ما سبق يتعلق بطبيعة نظرية باريتو عن المشتقات (الأيديولوجيات). وطالما أن العلاقة بين الرواسب معقدة للغاية، بل تكون غالبا متناقضة، فإنه من المتوقع أن يندر أن تكون المشتقات البشرية (الأيديولوجيات والتعبير الكلامى) منطقية ودقيقة من وجهة النظر التجريبية – المنطقية. ومن الواضح أن قدرا كبيرا من هذه المشتقات بما فيها المشتقات الاقتصادية والسوسيولوجية والدينية والسياسية (وكل مالا يشكل نظريات) ليست منطقية، وغير متسقة، بل متناقضة فى ذاتها، وزائفة من الناحية العلمية. فهى لا تصف الحقائق التى تمت دراستها بدقة، ولكنها تمثل نوعا من الدوافع أو التبرير أو التعقل، أو اضفاء الطابع الاخلاقى أو المثالى لنوع من السلوك نندفع إليه بفاعلية رواسبنا. وإذا كانت الرواسب تتغير، فإن نظرياتنا الزائفة علميا تتغير هى الأخري أيضا. فأحد الرواسب يفسح الطريق لراسب آخر مضاد، وأن نظريتنا القائلة بأن (أ) هى (ب) تفسح الطريق لنظريتنا التى تذهب إلى أن (أ) ليست (ب)، ومن ثم فإن منطق البرهنة البشرية فى أغلب الحالات أبعد ما يكون عن اعتباره منطقيا. وغالبا ما تتم الموافقة على أيديولوجيا معينة أو ترفض ليس لأنها فى غالب الحالات صحيحة أو زائفة، ولكن لأنها تتفق أو تختلف مع رواسبنا. وذلك يفسر تأثير الدعاية الصحفية أو الأحاديث الحماسية، وكل أنواع الكلام الذي يؤثر على مشاعرنا أو عواطفنا. فبدلا من البرهنة العلمية، نجدها تستخدم السلطة الكاملة للبرهنة اللفظية الزائفة، تلك التى تستثير ميولنا. وبرغم كل ذلك، فإن هذه المشتقات تكون غالبا أكثر اقناعا من البراهين العلمية، إذا كانت المشتقات على اتفاق والرواسب المسيطرة. وفى هذه الحالة، فإننا إذا رغبنا فى تغيير آراء وأيديولوجيات انسان أو جماعة معينة، فإن المدخل الأفضل هو أن نغير الرواسب، فإذا تغيرت الرواسب أو حطمت، فإن

المشـــتقات، أو الأيديولوجيات، المرتبطة بها سوف تتغير أيضا ومن وجهة الـــنظر هـــذه يعتـــبر علـــم اجـــتماع كونت بكل مثالياته (مشتقاته) الخاصة بالوضـــعية، التقدم، ديانة الانسانية، ليست علميا على الاطلاق وهو فى ذلك يمـــاثل العقـــيدة الفشتية الفجة. وتعتبر النظريات المتعلقة بالتقدم، التضامن، الديمقراطية، العدالة، الاشتراكية والقومية، والوطنية، والنزعة العالمية، وما إلى ذلك مشتقات غير منطقية من نفس النوع؛ وهى تختلف من حيث الشكل فقـــط عـــن المعـــتقدات الدينـــية والخاصة بالسحر البدائى، التى تدينها هذه الـــنظريات. وفـــى العـــادة يكون المناضلون المتحمسون ضد كل التحيزات والغيبـــيات ليســـوا إلا ضحايا لأحد أنواع الغيبيات، وهم فى الغالب يشبهوا أصـــحاب العقول الجامدة التى يناضلون ضدها. فإذا أخذنا فى الاعتبار على التـــتابع كـــل المفكريـــن الاجتماعيين المعاصرين الأكثر شهرة مثل كونت، سبنســـر، سمنر، هذا بخلاف العدد المتنوع من الأيديولوجيات، فإننا نجد أن باريتو يوضح بصورة مقنعة عدم اتساق قضاياهم، وتناقضها، وزيفها وعدم منطقيـــتها، فى حين نجده يوضح أن الرواسب هى المسئولة عن هذه النزعة العلمـــية الزائفة. وقد أوضح باريتو أكثر من أي مفكر آخر الطبيعة العلمية الـــزائفة لمفاهـــيم آلهـــة الـــتقدم، والتطور والديمقراطية والتضامن والعدل والقـــانون، والحقـــوق الطبيعية والأخلاق وما إلى ذلك. وتعتبر هذه المفاهيم والـــنظريات بالنســـبة له زائفة كأي غيبيات فجة، فهى نفس المشتقات غير المنطقية، غير أنها تلبس ثوبا أو طابعا معاصرا، ذلك هو الاختلاف الرئيسى. وهـــو أيضا استحالة اسناد أي تعميم علمى عن الانسان أو الجماعة أو الفترة التاريخـــية علـــى ردود الفعل الكلامية المتصلة به فقط، إذ تعتبر بالنسبة له مقياسا مضللا لا يحدد طبيعة الرواسب الكامنة وراءه.

ما سبق يوضح السبب فى أن باريتو لم يعط اعتبارا كبيرا للمشتقات. إذ نجد أنه قد كرس قدرا كبيرا من انتاجه لدراسة تغيرات وتقلبات المشتقات فى علاقتها بالرواسب. وبرغم أن الرواسب تتغير أيضا، إلا أن معدل وفعالية تغيرها عادة ما يكون أكثر بطئا ومحدودية إذا قورن بتغير المشتقات وتقلبها،

فالمشـــتقات ذات قابلية عالية للتنوع والتغير. وفضلا عن ذلك، وضح باريتو أنـــه بـــرغم تـــنوع وتباين المشتقات من حيث اشكالها الواقعية بين مختلف الشعوب والأزمنة، فإن الفئات الأساسية للرواسب التى تندثر فى أيديولوجيات عادة ما تكون ذات دوام نسبى. ولا شك أنه بالنسبة للملاحظة السطحية توجد اخـــتلافات هائلـــة بيـــن البدائـــى الذي يؤله وثنة أو مليكه من ناحية وبين الاشـــتراكى المـــتحمس الذي نعايشه فى عصرنا من ناحية أخري. إذ يمكن القـــول اســـتنتاجا مـــن ذلـــك أن كليهما لديه نفس رواسب التأليه، غير أن الاختلاف الوحيد بينهما يكمن فى أن البدائى يؤله وثنا معينا. ولتعزيز عقيدته فإنه يستند عادة إلى (ناموس السحر). فى حين أن الاشتراكى المتحمس يؤله مـــاركس، لينيـــن، وروسو، ومن أجل تعزيز قضيته نجده يقتبس من مؤلف رأس المـــال لمـــاركس أو مؤلفات روسو. فى الماضى كان راسب الطاعة يتجلى أساسا فى الخضوع للملك والقساوسة والنبلاء، ولما كان هؤلاء لم يعد لهـــم وجـــود الآن، فإن الراسب مازال باقيا، ويظهر نفسه من خلال طاعة الـــزعماء العقائدييـــن، أو قادة النقابات العمالية أو رجال الصناعة، وما إلى ذلك، قد تختلف المظاهر لكن الراسب واحدا. وإذا كان راسب فرض الاتحاد على أعضاء المجتمع قد تجلى فى الماضى من خلال التعصب الدينى، أو من خلال القضاء على أي اعتداء موجه إلى الثروة الخاصة، أو الطلاق، وما إلى ذلك، فإننا الأن أكثر تسامحا فى هذا الصدد. غير أننا لا نتسامح بدلا مع ذلك فيما يتعلق بتعاطى المخدرات، أو فيما يتعلق بتشويه انجازات المصلحين أو اتـــباع ديانـــة الانســـانية أو التقدم وما إلى ذلك، قد تغيرت المشتقات وظلت الرواســـب هى ذاتها. ومع ذلك فإن هذا التصور لا يعنى بالنسبة لباريتو أن كـــل هذه المشتقات غير كافية بكل تأكيد، أو أنها ضارة اجتماعيا. فهو يؤكد أنها تمتلك قدرا من الكفاءة، ولكن قدرا كبيرا كما قد يعتقد الكثيرون. وفضلا عن ذلك يؤكد باريتو، على نقيض كل المفكرين الذين يعتقدون أن كل حقيقة نافعة، بينما كل ما هو غيبي ضار. ثم يذهب إلى أن واقع الأمر مختلف، فقد وقعت كثير من التحيزات – المشتقات– لأنها ذات نفع بالنسبة لتكامل النسق

الاجتماعى. بينما نجد أن كثيرا من الحقائق الثابتة والصادقة يسرت انهياره. وبعبارة أخرى، فإن المشتقات (الأسطورة، الخرافة، العقيدة، الحماسية، الغيبيات التى تحمل وجه الواقع، والتي تستثير الحماس) قد تكون مفيدة للجماعة. ومن ناحية أخرى فإن الحقيقة الصريحة قد تكون مدمرة. وفيما يتعلق بهذه القضية يصل باريتو إلى نتائج تماثل إلى حد كبير تلك التى وصل إليها ميكيافيلى، جيمس فريزر، ليبون، سوريل، وآخرون. وحسب تفكيرهم فإن الغيبيات والبدع قد تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة للمجتمع بنفس أهمية الصدق التجريبى المنطقى. ما سبق يطرح الخطوط العامة لأفكار باريتو فى هذا الصدد(٤٧)، غير أن هناك قضايا أخرى هامة تتعلق بهذه القضية كتلك التحليلات التى قدمها باريتو حول تأثير الرواسب على المشتقات، أو تأثير الرواسب على الرواسب الأخرى، أو تأثير البيئة على الرواسب، أو تأثير المشتقات على المشتقات، وتأثير المشتقات على الرواسب. أو تلك التى تتعلق بتغير وانتشار كل من الرواسب والمشتقات وهو ما سوف نحاول التعرض له بالتفسير في موضع آخر.

بقى إذا أن نقدم بإيجاز أنماط المشتقات كما قدمها باريتو، إذ نجده يطرح علينا أربعة فئات أساسية للمشتقات هي:

١- المشتقات المتعلقة بالتأكيد (علي موضوعات معينة) أي ذكر حقائق واقعية أو متخيلة.Simple – Affirmation.

٢- اللجوء إلى السلطة Authority أي التفسير الزائف للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة وسحر الماضي والتقاليد والعادات أو الارادة الآلهية.

٣- الاتفاق مع العواطف أو المبادئ Accord with Sentiments or Principles، وهى المشتقات التى تحاول تبرير الأفعال المنطقية علي أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين.

٤- البراهين اللفظية Verbal Proofs وهى التى تهتم باستخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق، واستخدام التشبيه والبلاغة(٤٨).

وقد أوضحت الامثلة المختلفة التى قدمها باريتو لهذه الأنواع العديدة مـــن التفســـيرات اللفظـــية للســـلوك إمكانية تداخل هذه الفئات. غير أنه من الضرورى أن نلاحظ أنه ليست هناك علاقة وثيقة بين فئات الرواسب- التى عرضـــنا لهـــا مـــن قبل- وبين فئات المشتقات هذه. فكل منهما مستقل عن الآخر[٤٩].

رابعا: دورة الصفوة، والتأرجح بين الثعالب والأسود.

إذا اتفقنا على أن كارل ماركس يعتبر المفكر الذي نظر للبروليتاريا، فإنه يمكن بنفس القدر اعتبار باريتو المفكر الذي نظر للبرجوازية. وإذا كان كـــارل ماركس قد شخص أحوال البروليتاريا ورسم لها الطريق إلى السلطة، ودلـــك مـــن خلال (بلترة) البرجوازية. فإننا نجد أن باريتو قد ناضل ليرسم اســـتراتيجية تستطيع بها الصفوات البرجوازية تبادل السلطة وإمكانات القوة، عازلة الجماهير عن هذه الحركة التاريخية المتفاعلة.

ويتطلـــب فهم نظرية الصفوة عند باريتو ضرورة التعرف على عدة قضايا أساسية. أولها، ما هى طبيعة الصفوة، وملامح تحديدها العلمى، ثم ما هى الاعتبارات الأساسية التى يمكن بالنظر إليها تناول قضية الصفوة، ثم ما هـــى خصـــائص الصـــفوات، ثم ما هى خطوط دورة الصفوة فى النموذج الـــنظرى لباريـــتو، وسوف نحاول فيما يلي تناول كل من هذه القضايا علي حدة.

(أ) ففيما يتعلق بطبيعة الصفوة نجد أن فلفريدو باريتو يحاول أن يقدم تحديدا موضـــوعيا لمفهـــوم الصفوة. حينما يذهب إلى أن مصطلح الصفوة Elite ليســـت له أيـــة دلالة أخلاقية أو شرفية. وإنما هى تشير ببساطة إلى فئة من البشر المتفوقين فى مختلف فروع النشاط الانسانى[٥٠]. ولتحديد هوية الصفوة فى المجتمع الذي يضمها نجد أن باريتو يذهب إلى انقسام المجتمع تعسفيا إلى فئتيـــن، الصفوة واللاصفوة non - elite أو الجماهير. وتتكون الصفوة من هـــؤلاء الذيـــن يتفوقون علي الجماهير فى جوانب معينة، وفي العادة تشكل

الصـــفوة أقلـــية صغيرة نسبيا، وتنقسم الصفوة بدورها إلى الصفوة الحاكمة، والصفوة غير الحاكمة. وتضم الصفوة الحاكمة هؤلاء الذين يؤثرون بدرجة مباشـــرة أو غير مباشرة على تسيير إدارة شئون الحكومة (أما الصفوة غير الحاكمـــة فهـــى تلك التى تمتلك إمكانية الإدارة لكنها لا تشارك فيها بصورة مباشـــرة أو غـــير مباشرة). ومن المهم أن ندرك أن البناء التكويني للصفوة يتحدد بالنظر إلي فئتي الرواسب الأولي والثانية(٥١).

وفـــى محاولة التحديد الدقيق لمفهوم الصفوة أو لمن هم الصفوة فى المجـــتمع نجد أن باريتو يؤكد دعنا نفترض أنه يمكن اعطاء درجة لكل فرد فـــى كل فرع من مجالات النشاط الانسانى. بحيث تعتبر هذه الدرجة مؤشرا لقدرتـــه، بطـــريقة تشـــبه إلـــى حـــد كبير الدرجات التى تمنح التلاميذ فى الاختـــبارات المدرسية. فمثلا المحامى من النموذج ذو الكفاءة العالية سوف يمـــنح عشر درجات، فى حن يمنح المحامى الذي لم يستطع الحصول على زبـــون واحد درجة واحدة، محتفظين بالدرجة صفر للشخص المعتوه عقليا. ســـوف نعطى الشخص الذى إستطاع تأسيس تراكم رأسمالى يصل إلى عدة ملاييـــن – بطريقة أمينة أو منحرفة– أيا كان الأمر نحو عشر درجات، أما الشخص الذي استطاع توفير عدة آلاف فسوف نعطيه ستة درجات، وبالنسبة للشـــخص الذي يعيش بالكاد في إطار بيت فسنعطيه درجة واحدة، محتفظين بصفر لهؤلاء الذين يستحيل عليهم انجاز ذلك. وبالنسبة للمرأة التى تعمل فى السياســـة، والتى تحاول أن تفتن رجل السلطة وتلعب دورا فى طريقة آدائه لوظيفتهـــن فإنـــنا ســـوف نعطيها درجة عالية وليكن ثمانى درجات أو تسع درجـــات، أمـــا الـــبغى Strumpet التى تعمل فقط على اشباع شهوات هذا الانســـان، دونمـــا أن تحاول التأثير علي إدارته لشئون المجتمع، فإننا سوف نعطيها صفرا. وبالنسبة للوضيع Rascal الذي يعرف كيف يغافل البشر دون أن يعرفوا هويته سوف نعطى ثمانية أو تسع درجات أما بالنسبة للص الجبان الذي يخطف قطعة من الفضة من على منضدة مطعم ويهرب ثم يقع في أيدي الشرطة فإننا سوف نعطي درجة واحدة(٥٢).

ذلك يعنى أننا إذا تصورنا انقسام المجتمع إلى عدة مجالات فإنه من الممكـــن أن نميز فى كل من هذه المجالات الصفوة المؤهلة بأفضل العناصر من حيث الفاعلية فى اطار هذا المجال، وهى الصفوة التى تساهم بقدر كبير فى صياغة تفاعله. هذا إلى جانب وجود الصفوات المؤهلة بالعناصر لكنها لا تســاهم بشكل مباشر في صياغة هذا التفاعل. ثم الجماهير العريضة فى هذا المجال، تلك الجماهير التى ليس أمامها سوي الخضوع لهذه الصفوات الاكثر فاعلية وقدرة. هذا مع الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار أنه بغض النظر عن طبــيعة المجـــال، فإن لكل مجال صفوته، فمجالات الانحراف لها صفواتها، ومجالات السواء لها صفواتها أيضا.

(ب) بعد أن انتهينا من تحديد طبيعة الصفوة، نرى ضرورة توضيح أن تناول باريتو لقضية الصفوة قد تم في ضوء الاعتبارات الأساسية التالية:

١- يتمثل أول هذه الاعتبارات فى تأثر تناول باريتو لقضية الصفوة بعاملين أساســيين لهما الطابع التاريخى، العامل الأول، تعلق بتأثير تعاقب صفوات اليميــن واليســـار على حكم ايطاليا بعد التوحيد، ثم تناوب هذه الصفوات في السيطرة على السلطة، فى مقابل غياب الجماهير- خاصة جماهير الجنوب- عـــن المشاركة الفعالة- الحقيقة- على نحو ما أشرنا سابقا، بحيث دفع ذلك باريـــتو إلـــى التأكيد على دورة الصفوة واغفال الجماهير. أما العامل الثانى فيرجع إلى ايمانه بالقوة كوسيلة أساسية للحفاظ على وحدة المجتمع الايطالى، الحديـــث التوحـــيد، وأن أي تهاون فى التأكيد على وحدة المجتمع ولو بالقوة سوف تكون له آثاره على انهيار بناء المجتمع. ذلك يثير قدر من الشك حول الادعاء القائل بنقل باريتو لنظرية الصفوة عن معاصرة جيتانو موسكا.

٢- أن دورة الصـــفوة لهـــا علاقـــة بطبـــيعة الـــنموذج البنائى السائد، فكل المجـــتمعات سواء كانت مجتمعات الطائفة Caste System أو المجتمعات ذات البناء الطبقي المفتوح تحدث فيها دورة الصفوة. لكن الفارق بينهما يتمثل فى سرعة دورة الصفوات، وأيضا فى حجم الآثار التى تنتج عن الدورة. بيد أن باريـــتو قد اعتقد أنه في المجتمعات المفتوحة- طبعا- بصورة كاملة، أي

المجتمعات التى يسودها حراك اجتماعى كامل، نجد أن مراكز الصفوة ترتبط عادة بالقدرات أو الطاقات المتفوقة للأفراد. أعنى أن الصفوة في هذه الحالة تتكون من أكثر البشر قدرة على الحكم والسيطرة في المجال المحدد. بيد أن هـناك حقـيقة واقعية تتمثل فى أن العقبات التى قد تظهر فى المجتمع مثل الـثروة الموروثـة، والارتباطات العائلية وكل العوامل الشبيهة هى التى من شأنها أن تعوق دورة الأفراد لشغل مختلف مراتب أو درجات المجتمع. ومن ثـم نجـد أن المسافة بين هؤلاء الذين يحملون لقب صفوة من ناحية، وبين هـؤلاء الذيـن يمتلكون القدرات العاليـة تميل إلى الاتساع بدرجة أكبر أو أقـل(٥٣)، وهـو الأمـر الـذي يحـدث عادة في المجتمعات الانتقالية أو المجتمعات التى تعيش في حالة إزدواج المعايير.

٣- أن التجسـيد الواقعـى للأفكار التحليلية التى طرحها باريتو تكشف أنه ليسـت هـناك صـفوات مؤهلة برواسب معينة بينا أخرى مؤهلة برواسب مختلفة، فذلك أمر قد يصدق على المستوى التجريدي. بينما تشهد التفاعلات الواقعية على أن الصفوة تمر بثلاث حالات، فى الحالة الأولى تكون رواسب الصفوة أقوى ما تكون، هذه الحالة هى حالة فرض الاستقرار الاجتماعى، أو هـى حالـة (الأسود) فى السياسة أو (المحافظون) فى الاقتصاد. أما الحالة الثانـية الـتى تنتقل إليها الصفوة، فهى الحالة التى تحاول الصفوة بواسطتها الامسـاك بمقالـيد القوة سواء بأساليب الخداع أو عن طريق ابتكار نظريات وأفكـار (مشـتقات) تؤكـد فاعليـتها. فى الحالة الأولى تمتلك الصفوة فئة الرواسـب الثانية، والتى تؤكد على استمرار التجمع والاستقرار، وفى الحالة الثانية تسود مجموعة رواسب الفئة الأولى، التى تؤكد على تأكيد الترابطات، والمغامـرة والمخاطـرة والتجريب. وبين الحالتين تسود حالة انتقالية تختلط فيها رواسب الحالتين معا- وإن كانت هذه الحالة الانتقالية هى الحالة الأصل، بيـنما الحـالات المستقطبة، التى تكون فيها رواسب الصفوة نقية، هى التى تسود الفترات الاستثنائية فى تاريخ المجتمعات- حيث تكون الصفوة فى هذه المـرحلة خلـيط من الأسود والثعالب، أي خليطا من البشر الخياليين الذين

يميلون إلى التجديد – الأسود لتأكيد استقرار وتوازن البناء الاجتماعى. غير أنـــه حيــنما تحــدث بعض العوائق فى دورة الصفوة تمنعها من تحقيق هذا الخليط الممتاز بين الحالتين، فإننا نواجه بأحد احتمالين، فإما أن ينهار النظام الاجــتماعى ويميل إلى حالة من المحافظة الشديدة الثبات حيث البيروقراطية المتضــخمة والعاجزة عن التكيف أو تأسيس أي تجديد. أما الاحتمال الثانى فهــو الانحدار إلى حالة من حياة المجتمع فى ظل نظم اجتماعية تضم كثيرا مــن البلاغيين المتنازعين والعاجزين عن الفعل القوى والصارم. وإذا حدث ذلــك، فــإن المحكوميــن سوف يكونوا قادرين على الإطاحة بحكامهم، لكي تصعد صفوة جديدة وقادرة علي تأسيس نظام اجتماعي أكثر فعالية(٥٤).

٤- أنه إلى جانب دورة حالات الصفوة الواحدة، هناك دورة للصفوات ذاتها، وفـــى هــذا الصدد يمتلك كل مجتمع بصورة دائمة نموذجين للصفوة، نمط المجــددون أو المضـــاربون Speculator، ونمــط المحافظون Rentier. وحيــنما يمتلك المجتمع نموذجى الصفوة هذين، فإنهما يتناوبا حكم المجتمع بعــيدا عــن مشاركة الجماهير. وحينما يكون النموذج الأول (المجددون أو المضاربون)، هو المسيطر على الحكومة أو هو النمط الذي يسود الحكومات الديمقراطــية أو حكومـــات الصفوات الثرية، حيث تميل هذه المجموعة نحو تأســيس الارتــباطات الجديدة. ومن خلال احتلالها للسلطة فإنها عادة تدعم الرفاهــية والاقتصادية والاجتماعية، وهم عادة يخدعون الجماهير المحكومة من خلال الوعود والآليات الانسانية والديموقراطية العديدة، وما إلي ذلك.

ومن الطبيعى أن يؤدي ذلك إلى الفساد ونصب المكائد التى تؤدي إن عــاجلا أو آجــلا إلى نتائج مهلكة. وهو ما يدفع إلى التجاوز الحتمى للطبقة العلــيا بواســطة النموذج المضاد، المحافظون. وبهذه الطريقة فإن تبدل هذه النماذج يحدث فى مختلف الأزمنة والمجتمعات، ومازال مستمرا حتى الآن. وحسب ما يذهب باريتو، فإن غالبية الحكومات الديموقراطية فى فترة ما قبل الحــرب كانــت تــتكون مــن المضـــاربين الفاسدين، ومدبرى المؤمرات البرلمانيين. حيث امتلكوا القدرة علي تأسيس الارتباطات، برغم فسادهم البين

خـــلال هذه الفترة. غير أنهم كانوا فى ذات الوقت ذوى قلوب رحيمة وذوى نزعات انسانية، حتى أنه تم تجاوزهم بواسطة المحافظين (وبغض النظر عن ممـــيزات مـــثل هـــذا الموقف أو مساوئه) فإن الأحداث أكدت إلي حد كبير توقعات باريتو(٥٥).

غـــير أنـــه ينبغـــى أن نـــأخذ فى الاعتبار أن دورة الصفوة ودورة الصفوات ليست لها مدارتها المتباينة، وإنما نجدها تدور فى مدار واحد. وفى هـــذا الصدد نجد أن الصفوة قوية خلال الحالات الثلاث إذا هى حافظت على رواسبها. بيد أنها حينما تدخل فى المرحلة الثانية- وهى المرحلة التى تشهد انهـــيار هـــذه الرواسب- فإنها بذلك تمهد للانتقال إلى المرحلة الثالثة حيث محاولـــة جذب عناصر من الطبقات الدنيا مزودة برواسب جديدة، تعمل على دعـــم قوتهـــا بها. غير أنها أحيانا ما تحدث عوائق تؤخر وصول الدعم من أســـفل أو تمنعه تماما، هنا تصل الصفوة إلى أدنى مستوياتها ضعفا، بحيث تشـــكل بذلـــك هدفا لقفز الصفوة المتربصة على السلطة والإطاحة بالصفوة الضـــعيفة. ومن ثم تكتمل دورة الصفوات لكي تبدأ دورة حالات الصفوة من جديد.

٥- أن الصـــفوة عند باريتو ليست الصفوة السياسية فقط- حيث أكدت معظم التحليلات النظرية التى تناولت قضية الصفوة على هذا الجانب- ولكن هناك أيضا الصفوة الأقتصادية. وإذا كانت دورة الصفوة السياسية تتم بين الثعالب والأســـود، فـــإن دورة الصـــفوة الاقتصـــادية تكون عادة بين المضاربون والمحـــافظون. ومن الطبيعى أن تدور الدائرتين فى مدارات متوازية. حيث تـــتداخل المـــراحل الـ ياســـية للدورة بدقة مع المراحل الاقتصادية، ومن ثم تـــترابط الصـــفوات. فمـــثلا الصـــفوة الـــتى تدعـــم تأســـيس الارتباطات Combination Type تضـــم بداخلهـــا المضـــاربون Speculators على الجـــناح الاقتصـــادى والثعالـــب Foxes على الجناح السياسى(٥٦). فى حين تـــتداخل مرحلة الأسود Lions على الصعيد السياسى مع صفوة المحافظون أو المدخـــرون علـــي الصعيد الاقتصادى وذلك في اطار صفوة الحفاظ علي

استمرار التجمع. ويرتبط بذلك صفوة ثالثة وموازية، وهى الصفوة الثقافية، حيث يتوازى مع ثعالب السياسة ومضاربى الاقتصاد مجموعة المثقفين الذين لديهم ايمان كامل بالنظرية العلمية، أو الذين يتخذون الشك مدخلا لادراك الحقيقة. وذلك فى مقابل توازى المؤمنون بالخبرة الدينية، الذين يتخذون الايمان مدخلا إلى الحقيقة، مع أسود السياسة ومحافظوا الأقتصاد، وهو ما يعني طرح باريتو لمفهوم تعددية الصفوة بصورة مبكرة للغاية.

(ج) أما القضية الثالثة والتى تتعلق بخصائص الصفوة فإننا نجد أنه إذا كانت خصائص الصفوة هى ذاتها خصائص الجماهير، فإننا نجد أن الرواسب عند الصفوات أقوى منها عند الجماهير. وهو ما يفصل الصفوة عن جماهيرها. هذا إلى جانب أن الصفوات تختلف عن بعضها بالنظر إلى طبيعة وقوة الرواسب التى لديها. وفى هذا الصدد سوف نعرض لثلاثة قضايا أساسية. الأولى تتعلق بأنماط الصفوة بالنظر إلى خصائص كل نمط، ثم نعرض إلى الوظيفة الاجتماعية للصفوات بالنظر إلي خصائص كل منها، ثم قضية اختلاط الصفوات.

١- وفيما يتعلق بالقضية الأولى نجد أن الصفوة التى تعكس رواسب الفئة الأولى، هى عادة الصفوة التى ينتمى أفرادها إلى الثعالب فى السياسة والمضاربون فى الاقتصاد، والشك أو الايمان بالفكر العلمى فى نطاق الثقافة والفكر، ومن الطبيعى أن تمتلك هذه الفئة من الصفوة عدة خصائص أساسية. فرواسبها تفرض عليها أن تجبر البشر على بناء النسق أو النظام، أعنى تأسيس مجموعة الارتباطات المنطقية الزائفة بين الأفكار. هذه الفئة عادة ما تقودها رواسبها إلى محاولة السيطرة على مختلف العناصر المكونة للخبرة الواقعية والتحكم فيها. كذلك تدفع رواسب هذه الفئة أفرادها للمشاركة فى الاحتكارات الكبري، إذ نجدها تدمج المشروعات، وتربط فيما بينها، وتعيد الربط بينها وبين مجموعة ثالثة من المشروعات. على الجانب السياسى نمثل لهذه الفئة بهؤلاء الذين أطلق عليهم ميكيافيلى الثعالب، القادرون دائما علي التجربة والتجريب، والانحراف أو الابتعاد عن ما هو سائد.

هذه الفئة تتسم عادة بعدة خصائص أساسية ذات طبيعة أخلاقية. منها افـتقادها الـولاء للمبادئ. أو لتلك القيم المحافظة التى تؤكد على الاستقرار الاجتماعـى(٥٧). وفى هذا الصدد يؤكد تالكوت بارسونز أن الأشخاص الذين تقـوى لديهم رواسب الترابط يهتمون عادة بالحاضر على حساب المستقبل. يؤكدون على ما هو حالى أفضل مما هو مرجأ فى المستقبل البعيد، يؤكدون علـى السلع والاشباعات المادية وليست المثالية أو المعنوية، يؤمنون بتفوق المصالح الفردية على مصالح الجماعة، أيا كانت طبيعة الجماعة، سواء كانت العائلـة أو المجتمع المحلى أو حتى الدولة. يتميز أفراد هذه المجموعة أيضا بالميل إلى التجديد والإبداع، وتأسيس التصورات، والتوقعات، وعادة ما تكون لديهم ميول قوية لتحقيق أهدافهم وذلك لامتلاكهم المهارة والدهاء(٥٨).

٢- وتضـم المجموعة الثانية الصفوة التي تعكس رواسب الفئة الثانية، وهى الفئة التى تؤكد على استمرار التجمعات Persistence of Aggregates. وتضـم هـذه المجموعـة تلك الصفوة التى تؤكد على قوى المحافظة على الوضـع القـائم، ويمثلها البشر الذين تظهر لديهم رواسب الفئة الثانية قوية، حيث التأكيد على دوام التجمعات. وعادة يتميز البشر المكونين لهذه الصفوة بمشاعر قوية نحو العائلة، القبيلة، المدينة أو الأمة، وهم يلعبون دورا رئيسيا فـى تأكيد الوحدة والتضامن الطبقى، ولديهم احساس كبير بالوطنية، وأيضا يسـود لديهم شعور بالحماس الدينى، وهم لا يخافون من استخدام القوة متى فرضت الضرورة ذلك، وهؤلاء نمثل لهم بالأسود عند ميكيافيلي(٥٩).

وتتمـيز هذه الصفوة من الناحية الأخلاقية بالمحافظة على استقرار الترابطات أو التجمعات متى تشكلت. وعادة ما يتميز أعضاؤها بالثبات على مواقفهـم، والنزعة المباشرة لتناول الأحداث، وأيضا الارادة القوية للموافقة علـى الصـراع الصـريح متى فرضت الظروف ذلك. ولديها ميل لتجاوز العقـبات، ومن ثم استخدام القوة، يؤمنون بالتقاليد أكثر من ايمانهم بالتجديد، يعزفون في العادة عن الحيل والمكر والدهاء في معالجتهم للمسائل. بالإضافة

إلـــى ذلـــك فهـــم فى العادة يخضعون مصالحهم لمصالح الجماعة، أيا كانت طبيعة الجماعة التي ينتمون إليها(٦٠).

٣- أنه بالنظر إلى هذه الخصائص المنسوبة لكل من جماعات الصفوة، فإننا نجـد أنهـا تقـوم بوظائف مختلفة بالنسبة للمجتمع. حيث تؤدى مجموعتى الصفوة وظائف ذات نفع مختلف بالنسبة للمجتمع. فجماعة (المضاربون فى الاقتصاد والثعالب فى السياسة) عادة ما يكونون مسئولين أساسا عن التغير، وأيضـا عـن الـتقدم الاجتماعى والاقتصادي. أما جماعة (المحافظون فى الاقتصـاد والأسود فى السياسة) فعادة نجدهم بدلا من ذلك يشكلون عنصرا قويا فى الاستقرار اجتماعى، وعادة يشكلون مواجهات قوية لمخاطر (دخول المضاربون) فى مغامرات ذات طبيعة طفرية وخطيرة. وعادة يظل المجتمع الذي يسيطر عليه (المحافظون) ثابتا ومستقرا. أما المجتمع الذي يسيطر فيه (المضـاربون) فعـادة مـا يكون مجتمعا يفتقد الاستقرار، ويعيش حالة من اهـتزال التوازن، الذي قد ينهار كلية بفعل عوامل ذات طبيعة عرضية من الخارج أو من الداخل(٦١).

غـير أن ذلـك قـد يعنى أيضا أن تقع أو تؤدي هذه الوظائف فى مرحلتيـن مـن حياة الصفوة الواحدة. فمرحلة البناء والتأسيس فى تاريخ أي نظـام اجتماعـى وسياسـى تـتلوها عادة مرحلة من الاستقرار لاستيعاب التفاعلات التى تمت خلال مرحلة التأسيس هذه. أو أن هذه الوظائف تؤديها صـفوتين فـى تاريخ المجتمع الواحد. هذه الأفكار نجد نظيرا لها في أنماط السلطة عن ماكس فيبر، وهو ما عرضنا له سابقا.

٤- أن الخصـائص التى عرضنا لها لا توجد فى العادة نقية فى الواقع على الـنحو الذي عرضنا له، فعادة ما يحدث تداخل فى خصائص الصفوات فى حالتين. الحالة الأولى، فى المراحل الانتقالية حيث تحاول الصفوة شغل مكان صـفوة أخـرى، أما الحالة الثانية فهى الحالة التى تدخل فيها الصفوة إحدى مـراحل ضـعف خصائصـها، ومن ثم تحاول دعم خصائصها بأفراد من الطـبقات الدنيا. ويحدد هذا الوضع بالتفرقة بين حالتين تمر بهما الصفوة في

هـــذا الاطار، حالة تطابق الصفوة مع كفاءتها، وحالة انفصال طبيعة الصفوة عن كفاءتها أو بعض خصائصها.

ولتوضـــيح ذلـــك نجده يؤكد أن جماعة الأثرياء، والأرستقراطيات التجارية والدينية، والعسكرية، يمكن أن تشكل فى البداية عناصر من الصفوة الحاكمـــة، وفـــى بعـــض الأحـــيان تشكل كيانها بأكمله. إذ يعتبر المحارب المنتصر، والتاجر الثرى، والوافرى الثراء بشرا يشكلون هذه العناصر، كل فـــى مجال اهتمامه، باعتباره يسمو بقدراته على أصحاب القدرات العادية أو المتوسطة. في مثل هذه الظروف نجد أن مفهوم الصفوة يتصل إلى حد كبير بقدراتهـــا الحقيقية. ولكن بمرور الزمن، تحدث اختلافات واضحة للغاية بين مفهـــوم وخصـــائص الصـــفوة مـــن ناحية وبين قدراتها من ناحية أخرى. فالأرســـتقراطيات لا تدوم، ذلك لأن التاريخ هو مقبرة للأرستقراطيات، ومن ثـــم تنهار هذه الأرستقراطيات ليس من حيث عددها فقط، ولكنها تنهار كيفيا أيضا، بمعنى أنها تبدأ فى افتقاد جوهرها، وهو ما يعنى تضاؤل فى نسب أو مقادير الرواسب التى مكنتها من كسب السلطة والحفاظ عليها. بحيث يفرض علـــيها ذلك ضرورة أن تستعوض نفسها من العناصر ذات الرواسب القوية مـــن الطـــبقة الدنيا، والتى تحضر معها جوهر ونسب الرواسب الضرورية للحفـــاظ على الصفوة فى مواقع السلطة والقوة، ومن ثم فإذا لم يحدث دعما لهـــا مـــن الطـــبقات الدنيا فإن ذلك قد يعتبر أحد الأسباب الرئيسية لاهتزاز الـــتوازن الذي يتمثل فى تراكم العناصر السامية ذات التفوق فى رواسبها فى الطـــبقات الدنـــيا، والعكـــس صحيح، تراكم العناصر المتدنية في الطبقـــات العليـــا[٦٢].

(د) وفى أعقاب تحديدنا لطبيعة أو ماهية الصفوة، وخصائصها والاعتبارات الأساسية التى تتناول من خلالها الصفوة، نعرض الآن لقضية دورة الصفوة باعتبارها قضية مترتبة على القضايا السابقة. ولتوضيح ذلك يؤكد باريتو أن الرواسب تتغير فى المجتمع ككل، غير أن ذلك يتم ببطئ، وببطئ أكثر تتغير معظم فئات الرواسب كل في علاقتها بالأخرى. غير أنه بسبب ضعف حجم

الصـــفوة أو قوة رواسبها، فإن ذلك من شأنه أن يدفع إلى ظهور حقيقة تتمثل فـــي خضـــوع معظـــم المجـــتمعات لعملـــية مســـتمرة هى (دورة الصفوة Circulation of The Elite) التى يصعد من خلالها بعض الأفراد - الذين يشكلون صفوة- إلى مواقع الصفوة، بينما يهبط آخرون- الذين كانوا يشكلون صـــفوة أيضـــا- من مواقع الصفوة إلى القاع، وخلال هذه العملية قد تتغير راديكاليا طبيعة الصفوة في وقت قصير نسبيا.

ويـــدرك باريـــتو هـــذه العملية باعتبارها ذات طبيعة دائرية أساسا، وهوي دركها من خلال ثلاثة مراحل متداخلة نعرض لها فيما يلي:

١- وتـــتعلق المرحلة الأولى بمكانة الصفوة الحاكمة كما هى عليه. وتتحدد بدايـــة التحلـــيل من تلك المسلمة العامة التى تذهب إلى التأكيد على أن هناك قـــدرا من التناقض الطبقي، حتى أن الحكومة لا تعتبر مجرد إدارة روتينية ولكـــنها تستهدف الحصول على بعض الوسائل التى تيسر لها امتلاك السلطة والحفـــاظ عليها. وتنقسم هذه الوسائل بالنسبة لباريتو إلى وسيلتين رئيسيتين همـــا القوة Forcc، الخداع Ruse، ولا تحتاج القوة إلى توضيح، فهى تعبر عـــن ممارسة القهر الفيزيقى أو التهديد به فى بعض الظروف الحرجة التى تتطلـــب ذلـــك. وذلـــك كوسيلة للحصول على الولاء والخضوع. بينما يعنى الخـــداع أســـلوبا كـــاملا يبد من البراعة فى الخداع والمناورة التى تخاطب العواطف والمصالح ويصل إلي حد الاحتيال الصريح.

ومـــن الواضـــح تمامـــا أنه طالما أن فئتي الرواسب منفصلتين عن بعضهما- وهما كذلك إلى حد كبير بالنسبة لباريتو- فإن البشر الذين يمتلكون رواسب استمرار التجمع سوف يميلون إلى استخدام القوة والمخاطبة المباشرة لعواطف التجمع الذي يشاركون فيه. بينما سوف يستخدم البشر ذوى رواسب الترابط الخداع أساسا، حيث يعملون علي استغلال المصالح والعواطف التى لا يشاركون فيها.

وحينـــئذ تتمثل الدورة فى تبدل سيطرة فئتى الرواسب على الصفوة . الحاكمـــة. ويبدأ باريتو بملاحظة أن الصفوة الحاكمة التى لا تكون راغبة أو

تكـــون عاجزة عن استخدام القوة للحفاظ على مراكزها، تطرح نفسها فريسة ســـهلة لجماعـــة صـــغيرة، جـــيدة التنظيم وذات قيادة فعالة، ولديها استعداد لاســـتخدام القـــوة لتحقـــيق غاياتها، وهو يسمى هؤلاء البشر بالأسود. وتبدأ الـــدورة بصـــعود هذه الجماعة إلى سدة السلطة من خلال استخدام القوة أو الـــتهديد بهـــا، وعـــادة مـــا نجد أن هؤلاء البشر أقوياء فيما يتعلق برواسب اســـتمرار الـــتجمعات التـــي لديهم، هذا بالإضافة إلي أن لديهم ايمان عميق يشتركون فيه مع أتباعهم.

غـــير أن هـــذه الخصائص، برغم فعاليتها، في مساعدة حاملها على الصـــعود والامســـاك بالســـلطة، إلا أنها ليست فعالة بنفس القدر فى تمكين الجماعة الحاكمة فى الحفاظ على السلطة والابقاء عليها تحت سيطرتها. حيث أنه إذا كان بإمكانها استخدام القوة بفاعلية أكثر بالنسبة لمن لها سيطرة عليهم أو الداخلين فى إطارها، غير أن استخدام القوة لن تكون له هذه الفاعلية لمن هم ليسوا اتباعا أو ضد المواطنين الآخرين خلال فترة أو عملية فرض النظام فى المجتمع أثناء وجود هذه الصفوة في السلطة. وهنا يظهر لديها ميل قوي لاحـــياء غرائز الترابطات Combinations، أي القدرة على الخداع. ومما لاشـــك فـــيه أن هذه الظروف تساعد على تغير دورة الصفوة، حيث يؤدي الاعـــتماد علـــى أساليب المكر والخداع كوسيلة للحكم، وآداة لفرض النظام والســـيطرة، إلى ظهور فئة من البشر فى إطار الصفوة الحاكمة محنكون فى عملـــيات المكر والخداع، غير أنهم لم يشاركوا فى الإيمان الذي شاركت فيه الصـــفوة الأولى المؤسسة للنظام. ومن ثم نجد أن رواسب استمرار التجمع تـــبدأ فـــى الخفـــوف فى بناء الصفوة الحاكمة، وذلك بالنظر إلى حقيقة أن ضـــرورات الوقـــف الذي تعيش فى إطاره تتطلب بدرجة أقل الخصائص أو الرواسب المرتبطة بها- رواسب استمرار التجمع. وايضا لأن هذه الرواسب قـــد ضعفت حدتها بسبب الأشخاص الذين صعدوا إليها من أسفل ودخلوا إلى بـــناء الصفوة بسبب ضعف الأخيرة، برغم اختلاف رواسبهم عنها. ومن ثم فـــإذا نشـــأ عداء أو تناقض مع قوى خارجية أو داخلية فإننا نجد أن الصفوة

الحاكمــة تلجــأ إلى التعامل معه من خلال المكر والخداع بدلا من تجاوزه باســتخدام القــوة. ومن ثم يظهر اتجاه مؤداه أن عمليات الحكم تصبح مكلفة بدرجــة أكثر فأكثر، وذلك من طبيعته أن يفرض عبئا على الامكانيات التي يعتقد أنها ملائمة للبحث عن أساليب لا تتضمن استخدام القوة لفرض النظام.

وأخــيرا فإنه ارتباطا بهذه العناصر، تتجلى حقيقة أن مجرد الأمساك بالســلطة والســيطرة علــيها بصورة سهلة، فإن ذلك من شأنه أن يضعف رواســب الاســتمرار فــى بناء الصفوة الحاكمة. فإذا كانت السلطة – وهى الهدف المباشر – قد تم الحصول عليها، فإن الأهداف العليا التى كانت قريبة، تصــبح بعــيدة، وبالتالــي يركن أعضاء الصفوة إلى الدعة، ويجنون ثمار انتصارهم. ذلك أمر حقيقى طالما أنه يحدث فى الغالب ارتباطا بين عمليات أضعاف رواسب الاستمرار من ناحية، وازدهار الثمار النهائية للحضارة من ناحية اخرى، وهى المسألة التي من الطبيعي أن نجد صدى لها بصفة خاصة لدي الصفوة الحاكمة.

بالإضــافة إلــى ذلــك تقع نفس العملية، لكنها معكوسة، على جانب المحكومين. فمنن ناحية، نجد أن العواطف التى على أساسها شغلت الصفوة الحاكمة، مواقع السلطة يتم ازدراؤها وذلك بسبب تخفيف dilution رواسب الاســتمرار، وأيضــا تحول الخداع وتعمقه بحيث أصبح نوعا من الاحتيال. ومن ناحية أخرى يؤدي تغير شروط دورة الصفوة إلى تراكم البشر القادرين فــى الطــبقات الدنــيا الذيــن لديهم رواسب استمرار التجمع قوية، والذين يشــاركون فى ذات العواطف، ولديهم رغبة قوية فى استخدام القوة. ويعتمد مدى اعتبار الموقف غير مستقر إلى حد كبير، بالقدر الذي تكون فيه الصفوة قــادرة علــى حــرمان المحكومين من قياداتهم. فإذا كانت الصفوة مفتوحة وأباحت صعود هؤلاء البشر إليها، فإن الأمر قد يستمر على هذا النحو لوقت طويل جدا. غير أن تعرض الصفوة لهذا التعديل. قد يؤدي إلى زيادة سيطرة البشــر الذين يضمون رواسب الترابط قوية (الثعالب)، ومن ثم فسوف يؤدي ذلك إلي تخفيض إمكانية المقاومة بالقوة. ومن ناحية اخرى، تتزايد احتمالية

العــداء المزود بالقوة أما من الخارج، أو من أسفل من الطبقة الدنيا، وتكون النتيجة هي الإطاحة الحتمية بالصفوة الحاكمة، ومن ثم بداية دورة جديدة.

٢- وإذا كــان مــا ســبق يمثل الوجه أو المرحلة السياسية فى الدورة، فإنه ارتــباطا بهذا الجانب السياسى للدورة يوجد جانب اقتصادي آخر. حيث نجد أن نموذج الصفوة الذي تسود لديها رواسب تأسيس الترابطات (المضاربون) لكونهــم القسم الاقتصادى المقابل (للثعالب السياسيون). ولذلك يؤدي التغير العــام فــى طبــيعة الصــفوة الحاكمة- الذي يلقى بظله على الصفوة غير الحاكمة- إلى شغل قمة السلطة بواسطة فئة المقاولين من هذا النوع، هؤلاء المقاولون عادة يكونوا قادرين على تأسيس المشروعات من كل نوع. وتكون النتــيجة الحتمــية لذلك هو انتشار حالة من الرخاء، طالما أن هؤلاء البشر يــتولون توجــيه دفــة الأمور الاقتصادية او سحبها من يد أصحابها العقول التقلــيدية. ويميل ظهور هذه الفئة إلى التطابق مع صعود فئة الثعالب. وذلك لأن الســياق الاجتماعــى العــام يكون ملائما لكلا نموذجى الصفوة. وأيضا بسبب طبيعة العلاقة المتبادلة بين الصفوتين. ومن ناحية اخرى، فإن الحكومة عــادة تكــون لها السلطة الكاملة على الفرص الاقتصادية، ويمكن ان تعتبر سياساتها وسائل هامة للغاية لفتح الأبواب أمام المضاربين. ومن ناحية تالية، فــإن تنامى تكاليف الحكومة يجعل (المضاربين) مرتبطين بالمثل بالثعالب، ومن ثم فانتشار سيطرة كل منهما تميل إلى التطابق. ويمكن القول بأنه ليس هناك مكان محدد فى النشاطات الاقتصادية البحتة لجماعة الأسود، طالما أن اســتخدام القوة كوسيلة للتملك ينقل الفعل من المجال الاقتصادى إلى المجال السياســى. غــير أن هناك بلا شك نموذج يتميز بانتشار رواسب الاستمرار يســميه باريــتو المحافظون Rentiers. وبرغم أنهم ليسوا أفرادا يفضلون اســتخدام القوة، فإننا نجدهم تقليديين محافظين يرفضون تجديد المضاربين، وتكمــن أهميتهم الوظيفية فى الإطار الاجتماعى، فى حقيقة أنهم المدخرون، فى حين أن المضاربين، برغم كونهم منتجين عظاما فهم مسرفين، يستغلون المدخــرات، وبالنســبة لدورهــم في دورة الصفوة فهم يعتمدون علي تراكم

المدخـــرات. ويؤكد باريتو كثيرا على التمييز بين المضاربين والمحافظين – بين المقاول والمدخر– حيث أن الصراع بينهما قد يصبح في بعض الأحيان أكـــثر أهمية من الصراع الذي تؤكد عليه النظرية التقليدية والذي يدور حول الخلاف بين العمل ورأس المال.

ويتمـــيز النموذج المحافظ بالميل إلى الادخار، وذلك نتيجة للحساب الاقتصـــادي الرشيد، وأيضا بسبب القوى غير المنطقية الكائنة بداخله. وهم كفئة، حسبما يذهب باريتو، يعيش من أجل مصالحهم، وتكمن نقطة الضعف الهائلـــة فـــيهم، في أنه من الممكن استغلالهم من قبل المضاربين. ومن ثم فطالمـــا أن دورة الصفوة تتجه إلى مرحلة المضاربة، فإن الخطر الذي يبرز هـــو احتمالية استنزاف المدخرات، وعادة ما يتخذ ذلك على الجانب السياسي شكل ضعف نظام حكم (الثعالب) في الدفاع عن نفسه ضد القوة التي تفرض حـــدا لمـــرحلة الترابطات في الدورة. أما على الجانب الاقتصادي فإن هذه الـــنهاية توضـــع بسبب عدم قدرة المضاربين على الادخار. وعلى ذلك فمن الممكـــن أن يتصـــل العنصران بقوة ببعضهما لبعض. وبرغم أن المحافظين يتصـــفون بصـــورة عامة بالجبن والقابلية للاستغلال، إلا أنه من الممكن في ظروف معينة أثارتهم ودفعهم إلى النشاط السياسي، بحيث يشكلون من أنفسهم عنصرا هاما يدعم (الأسود) السياسيون ضد (الثعالب).

٣– ويتمثل الوجه الثالث للدورة في الوجه الثقافي والأيديولوجي أو ما يعرف بالمشتقات، حيث تشهد هذه المرحلة أو هذا الوجه، ظهور الأيديولوجيات التي تمهـــد السبيل إلى ظهور بعض العناصر الهامة في التفسير النظري. ويمكن الـــنظر إلـــى هـــذه الأيديولوجيات، أو نظريات التحليل السابق من زاويتين، الداخلـــية والخارجـــية. حيث تتصل الأولى بمدى اتصال الأيديولوجيات أو الـــنظريات بالحقائق، أما الثانية فتهتم بالقوى المسئولة عن انتاجها، والموافقة عليها في إطار سياق اجتماعي بعينه.

وبـــرغم أن كل النظريات المعنية ليست علمية إلا أنه يمكن التمييز الواضـــح بيـــن نموذجيـــن أساسيين من هذه النظريات، حيث تتسم نظريات

النموذج الأول بالطبيعة غير العلمية الصريحة أو الواضحة. وهذه النظريات تميل عادة إلى التقليل من قيمة وأهمية العلم الوضعي لصالح ذوات Entities تعلـو على ذلك (كالحدس)، (الخبرة الدينية) (المطلق)، (العلم اللدن)... الخ. ودائما ما يكون متضمنا في اطار ذلك نطاقا أعلى متخلفا أو مفترضا، يختلف عن عالم الحقيقة التجريبية، أما المبادئ التي تدعمها هذه النظريات، فهي تلك المبـادئ التي تفترض شيئا اعلى من الحقائق، وليس العكس، كما هي الحال بالنسبة للعلم. ومن ناحية أخرى، نجد أن النموذج الآخر من النظريات، برغم أنهـا نظريات لم تكتسب الشرعية العلمية، كالنظريات العلمية الزائفة، فإنها تحـاول أن تمـاثل نفسها قدر الإمكان بالعمل، حيث تعمل على دعم سلطة العقـل، وكـل ما يمكن أن يصبح ذواتا حقيقية. وهي تتضمن أيضا تشهيرا كـاملا بـنظريات النموذج الأول، ومن ثم نجد أن باريتو يتحدث عن بعض الأزمـنة، حينما تسود النظريات الأولى، باعتبارها (أزمنة الايمان Faith)، بينما تميز سيادة النظريات الأخيرة عصور (الشك Skepticism).

ومـن وجهة النظر الخارجية نجد أن هذين النموذجين من النظريات يرتبطان، بقدر ما، برواسب الاستمرار، وأيضا برواسب تأسيس الترابطات. وبطبـيعة الحـال، بالعواطف المتصلة بهذه الرواسب، إذ تعتبر الفترة التي يسـيطر فـيها (الثعالـب) أو (المضاربون) فترة تتميز بالشك، بينما عصر (الأسـود) (المحـافظون) عصر يتميز بالايمان. ذلك يقدم المفتاح الأساسي للتفسير النظري للدورة العامة، إذ يوضح التمييز بين نموذجي النظريات أن فئتـي الرواسـب التي ترتبط بها لا تقع على نفس المستوي التحليلي. وإنما تتحدد أساسا بواسطة حضور أو غياب خصائص معينة، كالايمان فيما يتعلق بواقعـية بعـض الذوات غير التجريبية على سبيل المثال. وفي هذا الاطار تعتـبر الغايـات المثالـية هي العنصر الرئيسي - على الأقل- في رواسب اسـتمرار التجمعات، حيث تفترض الطبيعة الترنسندنتالية لهذه الغايات. ومن ثـم يعـتقد أن هذه الغايات المثالية، تمارس نوعا من التنظيم على السلوك، ويرتـبط بذلـك أن تتجلى نفس العواطف، التي تتجلي في مثل هذه الغايات

المثالية، في قدر كبير من الطقوس التى تنجز بالنظر إلي دوافع- تتجاوز الدوافع النفعية – تتعلق بالإيمان أساسا.

وفي مقابل ذلك، فإن سيادة غريزة تأسيس الترابطات، من ناحية أخرى، يمثل إلى حد كبير حالة تشهد على غياب الضبط الفعال الذي يمكن أن تمارسه هذه الغايات المثالية. أو غياب سيطرة العناصر القيمية على السلوك. وهنا نجد أن تركيز الانتباه يكون عادة علي ما هو حاضر ومباشر أكثر من التركيز على ما هو نهائى، أو مستقبلي، أعنى التركيز علي اشباع الشهوات والسعي من أجل الثروة والسلطة(٦٣).

ذلك يعنى أننا في مواجهة دورة معقدة للصفوة تتسم بالملامح الرئيسية التالية:

(أ) أن هناك صفوتين على المستوى السياسى، احداهما مزودة برواسب القوة – رواسب استمرار التجمعات- من الفئة الثانية للرواسب. وأنها صفوة تعكس نمط شخصية الأسود الذين تحدث عنهم ميكيافيلى، وهم عادة تقليديون، مؤمنون، حاملي قيم يعملون دائما علي استقرار النسق الاجتماعي.

(ب) ذلك فى مقابل الثعالب – الذين حدد أوضاعهم ميكيافيلي أيضا – وهم المزودين برواسب تأسيس الترابطات، من الفئة الأولى، وهم يمثلون الصفة الدينامية في تصور باريتو للصفوات، وهم عادة مخادعون، يمارسون امتلاكهم للسلطة والاحتفاظ بها على أساس من المكر والخداع، شكيون، رافضون التقاليد، مؤمنون بالعلم، وبالاشباع الحالي والحاضر.

(حـ) أن الانتقال من الصفوة الأولى إلى الثانية يكون عادة سببه ضعف رواسب الصفوة، ومن ثم فإذا هى عجزت عن جذب أعضاء من الطبقة الدنيا لديهم رواسب قوية، فإنها تجد نفسها تعمل برواسب غير رواسبها، ومن ثم تجد نفسها وقد تحولت إلى ممارسات الثعالب، وبذلك تصبح فريسة سهلة لصفوة أسود قوية برواسبها وقيادتها.

(د) أنه يرتبط بذلك، دورة أخرى أو مناظرة للصفوة ولكن فى المجال الاقتصادى، حيث المحافظون مدخرون، متقشفون يعملون علي استقرار

الــنظام الاقتصادي، وهم هنا يناظرون أسود السياسة، ويحتاجهم الآخرون. وذلك فى مقابل المضاربون أو المقاولون الذين يستغلون مدخرات المحافظين فــى تأســيس المشــروعات وإشاعة حالة من البذخ، لكن افلاسهم يقود إلي ضرورة تجاوزهم من قبل صفوة اقتصادية جديدة.

(هـــ) أن كــل مــن هذه الصفوات لديها أيديولوجياتها أو نظرياتها أو لنقل مشــتقاتها فالأســود يؤمنون عادة بالنظرياتُ التى تركز على الحدس الخبرة الدينــية، والايمــان العمــيق بذوات غير واقعية، ولديهم أيضا ايمان بالمثل والغايــات العلــيا التى توجه سلوكهم. أما الثعالب، فلديهم ايمان بالنظريات العلمية، الشك مدخلهم إلى أدراك الحقيقة، تنتفى لديهم المثل العليا التى توجه ســلوكياتهم الواقعية، ويوضح الشكل التالي دورة الصفوة بأقسامها الأساسية علي مختلف المستويات الاجتماعية.

خامسا: النسق الاجتماعي بين التوازن والتغير.

تكشــف دراســة أفكــار باريــتو عن تغير أو عدم ثبات الظواهر الاجتماعية العديدة، عن تطويره لمجموعة من النظريات الدائرية فيما يتعلق بعديــد من العمليات الاجتماعية. ومن الواضح أن التطور الخطى Linear ظــل غريبا عليه فيما يتعلق بالتغير الاجتماعي، فقد أوضح فى أماكن كثيرة من كتاباته زيف الاتجاهات أو القوانين التاريخية المتعلقة بالتطور. بالإضافة إلــى ذلك فقد أبدى سخريته من النظريات التطورية التى تؤكد على مراحل محــددة للــتقدم. وهو يذهب إلى أن ما هو حقيقى فى التاريخ يتمثل فى تلك التقلــبات أو التأرجحات التى تمتد لفترات زمنية قد تطول أو تقصر، والتى تخــتلف من حيث مدى التغيرات التى تفرضها أيضا، إذ لم يري باريتو أي دلــيل يؤكــد علــى وجود تطور دائم ومستمر للمجتمع أو النظم الاجتماعية حسب خطوط محددة[٦٤].

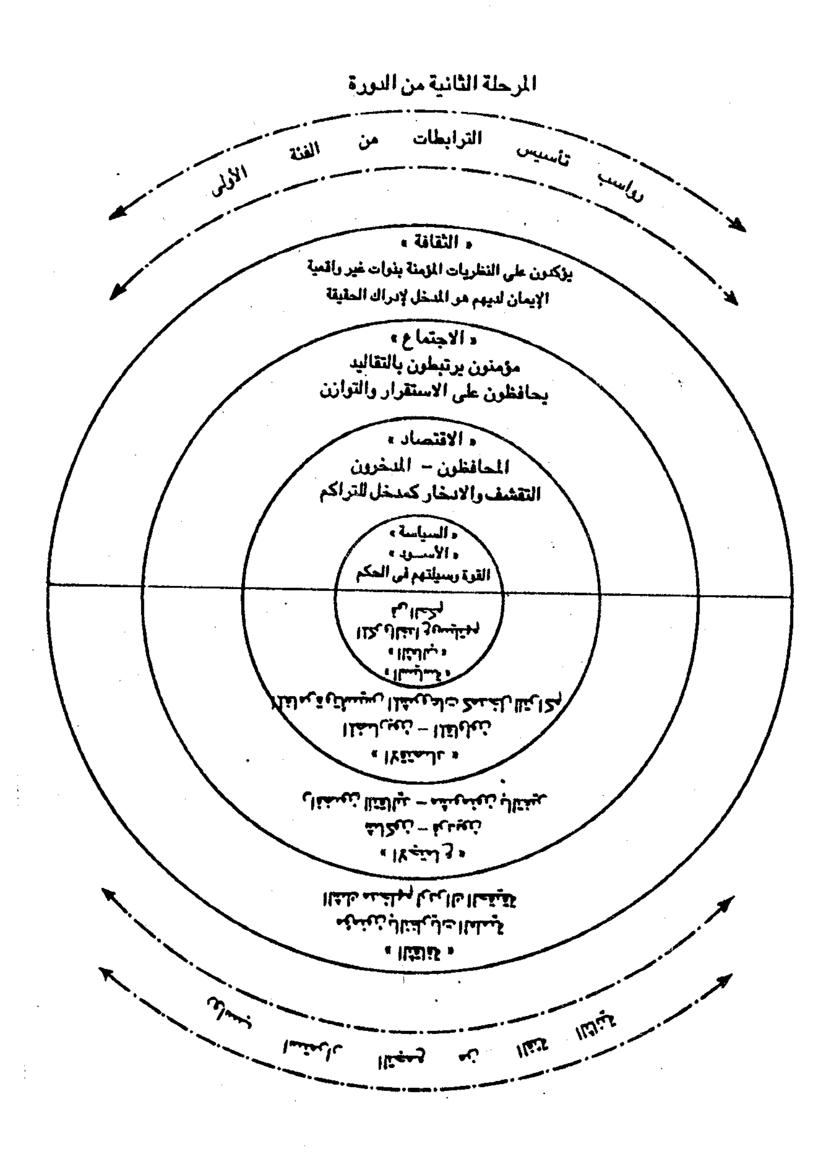
ويكشف البحث فى نظرية باريتو عن التغير الاجتماعى أن نظريته لا تنفصل كثيرا عن أفكاره النظرية فيما يتعلق بتوازن النسق الاجتماعي وتأكيد

اســتقراره. بل أن التحليل الصحيح لأفكار فلفريدو باريتو تكشف أن ما قدمه فــي الأســاس هو نظرية عن التغير الاجتماعى. غير أننا إذا تفحصنا أفكار باريــتو فــيما يتعلق بالتغير الاجتماعي فإننا سوف نجد أن هناك عدة حقائق بارزة فيما يتعلق بتصوره للتغير الاجتماعي. نعرض لها فيما يلي:

(أ) وتتمــثل الحقــيقة الأولـــى فى استناد نظريته في التغير الاجتماعي، إلى مفهوم الرواسب، ومن الطبيعى أنه إذا كانت الرواسب تلعب دورا اساسيا فى صياغة التفاعل الاجتماعى القائم فى المجتمع، فإنه من المنطقى أن يكون لها دورها الواضح فى تأسيس التغير الاجتماعى. ويتحدد دور الراسب فى التغير الاجتماعى، من خلال بعدين أساسيين، الأول يتمثل في خفوت فاعلية الصفوة الحاكمة، مما يجعلها فى بعض المراحل التاريخية صفوة بغير رواسب، ومن ثــم تجد نفسها فريسة سهلة لصفوة ذات رواسب قوية تصعد إليها من القاع. إذا فلحظــة التغــير تقع في اطار النسق النظرى لباريتو، حينما تكون هناك صــفوتان تشــتركان فـــى ذات الرواسب. احداها تتولى مقاليد السلطة، لكن ضعفت لديها رواسب الحكم، والثانية لا تمسك بمقاليد السلطة، ومع ذلك هى تمــتلك رواســب الصــفوة متأججة لديها، بما يجعل تجاوز الصفوة الحاكمة انجازا سهلا، بل ومطلبا بنائيا.

(ب) أمـــا البعد الثاني للتغير، فيتعلق بدورة الصفوة، فالتغير يحدث في اطار الصفوات. إذ تتناوب السيطرة على المجتمع صفوتان على ما يذهب باريتو، صــفوة (الثعالب) أو (المضاربون) وهي صفوة مغامرة تفضل المخاطرة أو تأســيس المشروعات والترابطات الجديدة. غير أنه بسبب ضعف الرواسب لديهـــا تــتخلق حالة تعقبها فيها صفوة الأسود، المحافظون التقليديون، الذين يؤكـــدون دائمـــا على الاستقرار والتقاليد والذين تتيح سيطرتهم على السلطة مســألتين: الأولى، التهيئة لفترة يأتي بعدها المضاربون والثعالب، يعني أنه علـــى الناحـــية الاقتصـــادية، تحـــتاج المضاربة والمشروعات الجديدة إلى المدخـــرات التـــى يكـــون المحـــافظون قد وفروها، ليأتي المضابون ونمط المقـــاولون كـــى يؤسســـوا المشروعات ناشرين بذلك حالة من الرخاء. أما المسألـــة الثانيـــة فتتصل بجوهر التنظيم الاجتماعي، فالتجديدات التي حققها

دورة الصفوة في إطار النظام
المرحلة الأولي من الدورة



الثعالب والمضاربون تحتاج إلى فترة لاستيعاب نتاجها فى البنية الاجتماعية، حتى تدعم بذلك قوتها على الاستيعاب، وتكون بذلك مؤهلة للدخول فى فترة جديـــدة مـــن المخاطرة والتجديد والتغير. بحيث نجد أنه فى كل مرة يحدث تجديد، ثم يستوعب، ثم تجديد آخر فاستيعاب، وهكذا بما يعنى تضخم الحجم الاجتماعـــي للمجتمع نتيجة للاضافات التدريجية التي تضاف إليه من خلال التغير.

(ج) أن التغـــير عند باريتو يضم نمطى التغير، التغير التدريجى والذي نرى مظاهـــره فى خفوت كثافة وعمق رواسب الصفوة الحاكمة من ناحية، وهو تغير على الجانب السالب فى مقابل ارتفاع كثافة هذه الرواسب لدى الصفوة غـــير الحاكمة، ولكن على الجانب الموجب. وحاصل طرح كثافة الرواسب علـــى الجانبين هو الذي يحدد طبيعة وحجم التغير المتوقع. فكلما كان الفارق بيـــن خفـــة الرواســـب لدي الصفوة الحاكمة، وارتفاع كثافتها عند الصفوة المحكومـــة ضئيلا، كلما توقعنا درجة معتدلة من التغير بسبب اباحة الصفوة الحاكمة لأفراد من الطبقات الدنيا للصعود إليها لدعم رواسبها كى تظل قوية. أما إذا توقفت عن هذا الإجراء، فإنها بذلك تترك الباب مفتوحا لاتساع الهوة من ثم إمكانية أن يقع تغيرا ثوريا عنيفا في بناء المجتمع.

أمـــا التغـــير الثورى فيقع حينما تكون الصفوة الحاكمة واعية بدعم نفســـها عـــن طريق استيعاب فئة الرواسب الأولى (الترابطات) أعنى قبول الأفراد الذين يمتلكون هذه الرواسب، والذين لديهم الإمكانية على الحكم، فإننا نجـــد أن الطـــبقة المحكومـــة تظل كما هى خاضعة ليس فقط بسبب افتقادها لعناصـــرها ولكـــن بالـــنظر إلى حقيقة أنه برغم كونها لديها أفراد مزودين بغرائـــز الـــرابطات (التجديد أو المخاطرة) فإن أعمال هذه الرواسب تبتعد عـــادة عـــن مجـــال السياسة، ومن ثم يتركز أساسا فى الفن والتجارة، وهى مجالات منفصلة عن السياسة. مثل هذه الظرف يساعد على تخلق الاستقرار فـــى المجـــتمع. فهو يساعد الطبقة الحاكمة، لأنه يحرم الطبقة المحكومة من قيادتها- التي صعدت إلي أعلي في فترة سابقة- غير أنه علي المدى الطويل

نجـد أن الاخـتلاف فـى المزاج أو الطباع بين الصفوة الحاكمة والصفوة المحكومة يميل لأن يتزايد ويبرز. ومن ثم تميل غرائز الترابط إلى الانتشار لـدي الطبقة الحاكمة، في حين تنتشر غرائز استمرار الجماعة لدي الصفوة المحكومـة. وحينما تصبح الاختلافات كبيرة بما فيه الكفاية فإن الثورة تقع، وتلـك هي نظرية باريتو فى الثورة. وهى النظرية التى تستند إلى الرواسب والعواطـف والمـزاج السائد، فهو يؤكد لنا أن هذه القاعدة العامة يمكن أن تطـبق علـى مستوى الدولة، فسوف ينتصر هؤلاء الذين لم يفقدوا إمكانية اسـتخدام القوة، على هؤلاء الذين افتقدوا هذه المقدرة. وعلى المدى الطويل، فإن هذا الموقف الأخير سوف يقود المجتمع إلى الانهيار. وبصفة عامة، فإن الاستبدال المثالي لاستخدام القوة بواسطة القانون غير المسلح، يعتبر نوعا من الخيال المحزن.

(د) ويتعلق البعد الرابع بحدود التغير الاجتماعى كما يراه باريتو، فهو تغير يستهدف بالأساس استرجاع التوازن الذي اهتز فى بناء النسق، وخلق وضع جديد تستقر فى إطاره الصفوات. بيد أن القضية التي تستحق الاعتبار تتمثل فـى أن التغير كما يتصوره باريتو ينحصر فى اطار الصفوات الحاكمة وأن الصـفوة التى تنتصر هى التى تفرض رؤيتها على المجتمع، ومن ثم يحدث التغير الاجتماعى إذا فالتغير الاجتماعى كما يراه باريتو يحدث على مرحلتين أو مستويين، المستوي الأول، وهو مستوى التغير في إطار الصفوات. وعادة مـا يشـكل التغـير فى قوة الرواسب مصدرا للتغير فى إطار الصفوة، ثم المسـتوى الثانى، وهو التغير الاجتماعى الذي تفرضه الصفوة بدورها على الواقـع الاجتماعى، وهو عادة ما يكون انعكاسا لتصوراتها أو نظرياتها التى تعتبر مشتقات لرواسبها الأساسية.

وبالإضـافة إلـى الأبعاد الأساسية السابقة التى تناول باريتو بالنظر إلـيها قضـية التغـير الاجـتماعى نجد أنه يؤكد على ثلاثة عوامل أساسية باعتـبارها العوامـل التى تؤسس التغير فى بناء النسق، سواء علي مستوى الصفوات أو علي مستوى المجتمع ونذكرها فيما يلي:

(أ) ويتمثل العامل الرئيسى فى اثارة التغير فى بناء النسق فى تغير رواسب الصفوة الحاكمة. فمثلا إذا كانت الصفوة الحاكمة تتكون من الأسود، وهى صفوة لها نظرتها القيمية والأيديولوجية المحددة، فإن ضعف رواسبها الأساسية (رواسب الفئة الثانية) وميلها لتبنى رواسب الفئة الثانية يفرض عليها أولا تغيير نظرتها للحياة أو لطبيعة النظريات التى تتبناها، وهو الأمر الذى يكون له انعكاسه على بناء المجتمع والمرحلة التالية للتفاعل. وثانيا فإن تبينها لرواسب غير رواسبها، يجعلها معرضة لتجاوزها بواسطة صفوة القوة وهى التى مازالت لديها رواسب (الفئة الثانية) فعالة وقوية.

(ب) أما العامل الثانى فيتمثل فى اهتزاز التوازن فى النسق الاجتماعى. ويحدث ذلك حينما تحاول الصفوة الحاكمة أو غير الحاكمة أن تغلق أبوابها فى وجه أى قادمون جدد من أكثر أفراد المجتمع المحكومين قدرة وفعالية، أو حينما تعاق دورة الصفوة. هنا نجد أن التوازن يهتز وينهار النظام الاجتماعى. ويؤكد باريتو أنه إذا لم تجد الصفوة الحاكمة الطريق الذي من خلاله تستطيع استيعاب الأفراد ذوى القدرات الاستثنائية والذين يصعدون إليها من الطبقات الدنيا والخاضعة، فإن حالة من عدم الاتزان تتخلق فى الكيان الاجتماعى والسياسى، وذلك إلى أن يتم اصلاح هذه الحالة. من خلال فتح قنوات جديدة- وهو ما يعنى تغيرا- للحراك. أو من خلال الاطاحة العنيفة بالصفوة الحاكمة غير الفعالة وغير المؤثرة بواسطة صفوة جديدة تمتلك إمكانات الحكم(٦٥).

(ج) ويتمثل العامل الثالث فى امتلاك القوة لفرض التغير الاجتماعى. ويمكن الكشف فى كتابات باريتو عن معنين لاستخدام القوة. ويتعلق المعنى الأول بالقوة التى تستخدمها الصفوات ذات الرواسب القوية، والتى تقضى بواسطتها على الصفوات الضعيفة لتغيير أحكام السيطرة على التفاعلات الكائنة بالسياق الاجتماعى، وهو ما يعنى أنها صفوة تمتلك إمكانات القوة ولا تتردد فى استخدامها. أما المعنى الثانى لاستخدام القوة فيطرحه باريتو، بحيث استنادا إليه تستخدم الصفوة الحاكمة القوة لفرض عدم تغييرها، أو استعادة الأوضاع

عــن طــريق السيطرة على التفاعل الاجتماعى بعد أن كانت هذه السيطرة ضـــعيفة. وفى هذا الاطار يؤكد أنه فى مجتمع تكون فيه الصفوة (أ) لأسباب انســانية أو لأية اعتبارات أخرى غير قادرة على استخدام القوة، فإنها بذلك تتهرب من أحد الواجبات الأساسية للطبقة الحاكمة. مثل هذا المجتمع إذا ظل علـــى هــذا النحو، فهو حتما فى طريقه إلى الفناء، غير أننا نجد أن الصفوة المحكومة (ب) قد تعمل على تطبيق استخدام القوة إلى أبعد حد ممكن، وهى فى استخدامها للقوة لا تطيح بالصفوة (أ) فقط وإنما نجدها تقتل أكبر عدد من أفرادها. وإذا فعلت ذلك فهى فى الحقيقة تنجز خدمة عامة ومفيدة، أعنى أنها تفعـل شـيئا تخلص فيه المجتمع من حيوانات غير مفيدة، وبسبب ذلك فإن النســيج الاجتماعـــى يكتسب قوة واستقرارا، حيث ينقذ المجتمع من الدمار وتعـــاد ولادتـــه من جديد. ويتضح ذلك من تعليق باريتو على إحداث الثورة الفرنســية، في ١٧٨٩، حينما يؤكد أنه لو توفر نوع من الايمان لدى الطبقة الحاكمة، يشير عليها باستخدام القوة وإرادة استخدامها، فإنه كان من الصعب الإطاحـــة بها، وكان من الممكن أن تحافظ على امتيازاتها وامتيازات فرنسا فى ذات الوقت. ومع ذلك فقد أدى فشلها فى إنجاز هذه الوظيفة، إلى حدوث شـــئ عظيم يتمثل فى ظهور مجموعة سعت إلى امتلاك السلطة وأوضحت إيمانهـــا وإرادتهـــا علـــي مواجهة الأمر باستخدام القوة لفرض النظام علي الواقـــع[٦٦].

خلاصـــة الأمر أن باريتو يقدم لنا نظرية فى التغير الاجتماعى تضم مســـتويين رئيســـيين، الأول قضايا لمعالجة التغير الاجتماعى على مستوي الصـــفوات فى المجتمع، وهو التغير الذي قد يتم على مستوى الصفوة إلا أن لـــه انعكاســـه الذي يشمل كلية الواقع الاجتماعى والتفاعلات التى تحدث فى إطاره. أما المستوى الثانى فيضم قضايا التغير الاجتماعى والحضاري على مستوي فترة تاريخية يتحرك فى اطارها المجتمع، وهو ما يعني تقديم باريتو لرؤية في التغير الاجتماعي أكثر شمولا وفعالية.

سادسا: نظرية فلفريدو باريتو، رؤية نقدية.

برغم الانجاز الهائل الذي حققه باريتو فإننا نجد أن الفترة التاريخية السـابقة قد شهدت تجاهلا لأفكاره، وكأن الصاع قد رد له بصاعين. فمثلما تجـاهل هو فكر معاصريه، تجاهله الورثة الفكريون لعصره. غير أننا برغم ذلـك نجـد أن باريـتو قـدم أفكارا مازالت لها وجاهتها في إطار النظرية الاجتماعـية المعاصـرة، هـذا إلى جانب أن كثيرا من أفكاره شكلت أساسا لـنظريات اجتماعـية عديدة كانت عبارة عن انجازات عظيمة حققها الفكر الاجتماعي.

فمـن انجازاته تصوره للعلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة، وهو التصور الذي يعتبر أفضل كثيرا من التصورات التى طرحتها الـنظريات الاجتماعية الأخرى ذات الصلة بالموضوع. هذا إلى جانب اتفاق نظريته عن الاعتماد المتبادل بين مختلف الظواهر الاجتماعية، وايضا تأكيده علـى المناهج الكمية والوظيفية لدراستها، مع الاتجاهات المعاصرة الآن فى العلوم الاجتماعية والطبيعية للدراسة، بل أن صحة وشموخ افكاره تتبدى من خـلال تحلـيله للسـلوك الانسانى أو لدور الرواسب والمشتقات، وللأفعال المنطقـية وغير المنطقية. بل إننا نجد أن نقده الحاد والصارم للطبيعة غير العلمـية لكثـير من النظريات السوسيولوجية التى سادت عصره مازالت لها وجاهـتها إلـى حـد كبير. هذا إلى جانب تأكيده القيم على توجيه اهتمامنا للعناصر ذات الدوام النسبى فى بناء النسق الاجتماعى، بالإضافة إلى نظريته المتعلقة بتباين البشر الأفراد، ونظرياته فيما يتعلق بالتدرج الاجتماعى ودورة الصـفوة، ونقـد أيديولوجيات التقدم والديمقراطية والتضامن، وما إلى ذلك، وهـو امـر شارك فيه الكثيرين، بل أن هناك من تقدموا لتطوير الكثير من أفكـاره، حيث كانت بعض هذه التطويرات مستقلة عن فرضياته بينما تمت الأخرى تحت تأثير أفكاره(٦٧).

إلـى جانـب ذلـك قدم باريتو نقدا لتفسيرات النظريات الاجتماعية العاملية، والتي تحاول اختزال الحياة الاجتماعية إلي عوامل أو أسباب بعينها.

ومــع ذلك فقد قدم إلينا عددا محدودا من العوامل التى أعتقد أنها تحدد وضع المجــتمع والتغير الاجتماعى. فبالنسبة للتغير نجده يؤكد فكرة وجود وانتشار رواسب معينة أو الميل نحو التصرف بأساليب معينة. ويقصد بذلك تلك التى تمــتلكها الصــفوة الحاكمة، وإذا فالتغير الذي يطرأ علي الصفوة يبدو وكأنه نتيجة لضرورة داخلية[٦٨].

هذا إلى جانب أن باريتو قد قدم مساهمات أساسية تتلخص فى تأكيده علــى ضــرورة خضوع علم الاجتماع للمتطلبات العلمية وتصوره للمجتمع كنســق يحقــق توازنا ديناميا. وفيما يتعلق بالمفهوم الأخير، نجد أن القضايا التى قدمها باريتو تصور ميل الأنساق الاجتماعية نحو استعادة توازنها إذا ما طــرأ عليها أي اختلال. بالإضافة إلى العوامل التى تسهم فى تحديد ظروف الأنســاق الاجتماعــية، وأهمية السلوك غير المنطقى فى الحياة الاجتماعية والطــابع الــدورى للتغير الاجتماعى الذي يتميز بوجود فترات تغير بطئ، تتــبعها تعديــلات سريعة. كل هذه القضايا يمكن اعتبارها صياغات جديدة تتسق عموما مع الظروف الواقعية [٦٩].

هــذا بالإضافة إلى أن قوله بالرواسب كعامل مفسر لاستقرار وتغير المجتمع، يعتبر طرحا لمتغير جديد يمكن أن تفيد فى فهم الواقع الاجتماعى. وإذا كانــت النظريات العاملية قد ارتكبت خطأ النظر إلى الوجود الاجتماعى مــن زاوية ضيقة، فإنها أفادت فى أنها ألقت الضوء واضحا على متغيرات ذات أهمية وفاعلية فى صياغة التفاعل الاجتماعى ومنها الرواسب. ومن ثم يمكــن القول بأن باريتو قد قدم اسهاما واضحا فى اطار النظرية العامة عن طريق القائه الضوء الواضح حول فاعلية أحد متغيرات الوجود الاجتماعي.

غــير أنــنا مــع ذلــك نجد أن باريتو قد سقط فى بعض الأخطاء الأساسية، فمفهومه عن الرواسب ظل مفهوما غير محدد إلى حد ما، هذا إلى جانب أنه مفهوم ذاتى فى جوهره. بمعنى أن باريتو تناوله باعتباره نوعا من الدوافــع الداخلــية (العاطفة، الغريزة) التى تستعصى على القياس والدراسة الموضــوعية. ومــثل كثير من علماء النفس وضع باريتو هذه الرواسب في

الانســـان، وبــدأ يستنبط منها ما يريد. ولهذا السبب فكل الاعتراضات التى نطــرحها في مواجهة التفسيرات النفسية نطرحها فى مواجهة نظرية ومنهج باريتو. ذلك أن باريتو لم يستطع تجاوز أخطاء النزعة السيكولوجية، من ذلك انه من المستحيل مثلا دراسة هذه الدوافع الداخلية كميا وموضوعيا. وبرغم ميل باريتو إلى هذه الدارسة الكمية فإنه لم يستطع أن يقدم بحثا كميا لمثل هذه الرواســـب، وذلـــك هو السبب فى أن تصنيف باريتو للرواسب يبدو تعسفيا وناقصـــا، وموضع شك. ومن الطبيعى أن يكون هذا التصنيف قد أثر بنفس الطريقة علي كثير من استنباطاته واستنتاجاته.

مـــن الصـــعب أيضـــا أن نميز بين الرواسب عند باريتو والمصالح باعتـــبارها عوامل اقتصادية، إذ أن الخط الفاصل بينها غير محدد بطريقة واضحة. ولهذا السبب أصبح من الصعب ان نحدد درجة التأثير التي مارسها كل عامل من هذه العوامل في تحديد التوازن الاجتماعي.

بالإضـــافة إلى ذلك نجد أن باريتو قد أكد مرارا على حقيقة أن نفس الراســـب يمكن أن يشكل أساسا لمشتقات مختلفة، ولهذا السبب فإنه من غير المؤكـــد بصورة محددة تحديد أي من الرواسب مصدرا لأي من المشتقات. وقـــد جعلـــت هـــذه الحقيقة كثيرا من إسناد باريتو المشتقات لرواسب معينة موضع تساؤل وشك، قد تكون نتائجه صحيحة أو خاطئة. ولهذا السبب فنحن كمن يسبح في البحر لا يعرف العلاقات الحقيقية بين الرواسب والمشتقات.

وأخـــيرا فإننا نجد أن نظرية باريتو فيما يتعلق بدورة الصفوة عامة للغاية وناقصة. وتحتاج إلي تصحيحات وتطويرات كثيرة.

مـــا سبق إذا يحاول أن يوضح نقاط الضعف فى نظرية باريتو، ومع دلك فإن هذا النقد لا يلغى الاسهامات المنهجية القيمة التى قدمها باريتو للعلم الاجتماعـــى. وأيضـــا اسهاماته فى علم اجتماع الأيديولوجيات وردود الفعل الانســـانية اللفظـــية. أو اسهاماته فى دراسة الظاهرة الاجتماعية ككل. حيث تعتبر انجازاته في هذا الصدد افضل استمرار لخطة عمل الفيزيقا الاجتماعية .

الــتى طورهـــا مفكـــروا القرن السابع عشر، حيث حاول باريتو تنفيذ هذه الخطـــة(٧٠).

ويمكن القول بأنه منذ نشر كتاب س. رايت ميلز عن (صفوة السلطة Power Elite) يوجـــد اتجاه لإعادة أحياء انجازات باريتو في أمريكا. حيث ظهـــرت مؤلفـــات كثيرة منها مؤلف سوزان كيلر Suzzanne Keller (ما وراء الطـــبقة الحاكمـــة) وكتاب بوتو مور عن (الصفوة والمجتمع) وبالمثل اختـــيارات فاينر S. E. Finer وجوزيف لوبيريتو Joseph Lopreto من أعمالـــه. وقد حدث نفس الشئ فى أوربا، حيث نجد تجديدا للاهتمام بباريتو، تشهد علي أعمال ريمون آرون فى فرنسا وأعمال جيجى Jaeggi وأيزرمان Eisermann فـــى ألمانيا. وحسبما يذهب لويس كوزر، أنه إذا تأكد لنا أن الزمـــن قد حيد التحيزات الأيديولوجية لباريتو فإنه قد بقي لنا فكرة شامخا- يمارس تأثيره الفعال علي العلوم الاجتماعية(٧١).

مراجع الفصل الأول

1- Coser, L: Masters of Social Thought, Harcourt Brace. Jovanovich. Inc. New York. 1977. p, 422.

2- Ibid. pp, 402 – 403.

3- Ibid. p, 403.

4- Ibid. p,

5- Martindale, Don: The Nature and Types of Sociological theory Routledge & Kegan Paul, 1967. p. 101.

6- Lewis Coser: Op, Cit. p, 421.

7- Ibid. p, 40.

8- Ibid. p, 405.

9- Barnes, H. E.: Social thought From Lore to Seience. Routledge & Kean Poul. Vol . 2. 1957. p, 409.

10- Zeitlin, I: Ideology and The development of Sociological Theory Prentice- Hall- New Delhi, 1969 p, 160.

11- Ibid. p, 160.

12- L. Coser. P, 418.

13- Ibid. p, 421.

14- Ibid. p, 421

15- Ibid. p, 412.

16- I. Zeitlin. Op, Cit. p, 165.

17- Ibid. p, 165.

18- L. Coser: Op, Cit. p, 402.

19- H. E. Barnes: Op, Cit. p, 430.

20- Parsons, T. : The Structure of Social Action. The Free Press, New York, 1937. p, 270.

21- L. Coser: Op, Cit. p, 387.

22- Sorokin, P.: Contemporary Sociological Theories. Harper & Row New York. 1928. p, 40.

23- T. Parsons: Op, Cit. p, 181.

24- Ibid. p, 181.

25- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 179.

26- L. Coser: Op, Cit. p, 407.

27- Ibid. p, 410

28- P. Sorokin: Op, Cit. p, 41.

29- Ibid. p, 41.

30- L. Coser: Op, Cit. p, 411.

31- H. E. Barnes: Op, Cit. p, 422.

32- Don- Martindale: Op, Cit. p, 111.

33- L. Coser: Op, Cit. p, 411.

34- Ibid. pp, 411 – 412.

35- Ibid. p, 409.

36- Ibid. p, 409.

37- H. E. Barnes: p, 411.

38- T. Parsons: Op, Cit. p, 220.

39- Ibid. p, 221.

40- L. Coser: Op, Cit. p, 420.

41- I, Zeitlin: Op, Cit. p, 159.

42- Ibid. p, 159.

43- Ibid. p, 159.

44- Ibid. p, 168.

45- Levingston, Arthur (ed): Mind and Society, New York,1935, Vol. 2. p, 311.

46- Ibid. p, 309. and See also T. Parsons: Op, Cit. p, 179.

47- Aron, Raymond: Main Currents in Social thought. New York Basic Books, Vol. 2. p. 134, and See also L. Coser: Op, Cit. p, 412.

48- I. Zeitlin: Op, Cit. pp, 165 – 166.

49- Ibid. p, 168.

50- Ibid. p, 168.

51- T. Parsons: Op, Cit. p, 179.

52- L. Coser: Op, Cit. p, 312.

53- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 165.

مراجع الفصل الثاني

1- R. Aron: Op, Cit. p, 146.

2- L. Coser: Op, Cit. p, 389.

3- Henderson, L. J.: Pareo's General Sociology. Prentice Hall. New York. 1968. p, 134.

4- Don Martindale: Op, Cit. p, 102.

5- L. J. Henderson: Op, Cit. p, 71.

6- T. Parsons: Op, Cit. p, 71.

7- T. Parsons: Op, Cit. p, 183.

8- P. Shokin: Op, Cit. p, 41. and See also Don Martindale: Op, Cit. p, 102.

9- L. J. Henderson: Op, Cit. p, 89.

10- Don Martindale: Op, Cit. p, 103.

11- Ibid. p, 103 – 104.

12- Finer, S. E.: Vilfredo Pareto, Sociological writtihgs. New York Praeger, 1966. p, 173.

13- T. Parsons: Op, Cit. p, 220.

14- P. Sorokin: Op, Cit. pp, 40 – 41.

١٥- نـــيقولا تيماشـــيف: نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون. دار المعارف. الطبعة الخامسة، ١٩٧٨، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

16- L. Coser: Op, Cit. pp, 382 – 389.

17- P. Sorokin: Op, Cit. p, 53.

18- T. Parsons: Op, Cit. pp, 181 – 182 and See also S. E. finer: Op, Cit. p, 170.

19- L. coser: Op, Cit. p, 389.

20- T. Parsons: Op, Cit. p, 197.

21- I. Zeitlin: Op, Cit. pp, 162 – 163.

22- T. Parsons: Op. Cit. p, 185.

23- P. Sorokin: Op, Cit. p, 37.

24- Ibid. p, 44 – 46.

٢٥- نيقولا تيماشيف: مرجع سابق، ص ٢٤٨.

26- P. Sorkin: Op, Cit. pp, 43 – 44.

27- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 186.

28- Meisel, J. E.: Pareto and Mosca. Englewood- Cliffs, New Jersey. Prentice – Hall. 1965. p, 84.

29- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 181.

30- Ibid. pp, 163 – 164.

31- P. Sorokin: Op, Cit. p, 181.

32- L. Coser: Op. Cit. p, 394.

33- Ibid. p, 395.

٣٤- نيقولا تيماشيف: مرجع سابق، ص ٢٤٢.

٣٥- نفس المرجع : ص ٢٤٣.

36- P. Sorokin: Op, Cit. p, 47.

٣٧- نيقولا تيماشيف: مرجع سابق، ص ٢٤٠.

38- J. E. Meisel: Op, Cit. p, 87.
39- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 186.
40- Ibid. p, 166.
41- Ibid. pp, 176 – 177.

مراجع الفصل الثالث

1- L. Coser: Op, Cit. p, 413.
2- Ibid. pp, 413 – 414.
3- Ibid. p, 414.
4- Ibid. p, 414.
5- Ibid. p, 415.
6- Ibid. p, 414.
7- Ibid. p, 415.
8- Ibid. p, 417.
9- S. E. Finer: Op, Cit. p, 170.
10- E. Parsons: Op, Cit. p, 179.
11- R. Aron: Op, Cit. p. 137.
12- T. Parsons: Op, Cit. p. 235.
13- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 191.
14- R. Aron: Op, Cit. p, 120.
15- P. Sorokin: Op, Cit. pp, 48 – 49.
16- T. Parsons: Op, Cit. p, 200 – 201.
17- P. Sorokin: Op, Cit. p, 53.

18- Ibid. p, 54.

19- Ibid. pp, 55 – 56.

20- L. Coser: Op, Cit. pp, 398 – 399.

21- I. Zeitlin: Op, Cit. pp, 169 – 170.

22- P. Sorokin: Op, Cit. pp, 49 – 50.

23- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 174.

24- T. Parsons: Op, Cit. p, 279.

25- I. Zeitlin: Op, Cit. pp, 174 – 175.

26- Ibid. p, 174.

27- T. Parsons: Op, Cit. p, 279.

28- I. Zeitlin: Op, Cit. pp, 175 – 176.

29 - Ibid. p, 174.

٣٠- ســمير نعيم: النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف. الطبعة الثانية ١٩٧٩، ص ١٣٨.

٣١- نيقولا تيماشيف: مرجع سابق، ص ٢٤٤.

32- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 177.

33- Ibid. p, 174.

34- Ibid. pp, 177 – 178.

٣٥- نيقولا تمياشيف، مرجع سابق، ص ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

36- I. Zeitlin: Op, Cit. p, 178.

37- Ibid. p, 179.

38- Ibid. p, 181.

19- Ibid. p, 182.

٤٠- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

٤١- سمير نعيم: مرجع سابق، ص ص ١٤١ - ١٤٢.

42- P. Sorokin: Op, Cit. pp, 49 – 54.

٤٣- سمير نعيم: مرجع سابق ص ١٤١.

٤٤- نيقولا تيماشيف: مرجع سابق ص ٢٤٦.

45- L. Coser: Op, Cit. p, 397.

46- t. Parsons: Op, Cit. pp, 279 – 281.

47- L. Coser: Op, Cit p, 497.

48- Ibid. pp, 397 - 398.

49- Ibid. p, 399.

50- P. Sorokin: Op, Cit. p, 56.

51- T. Parsons: Op, Cit. p, 282.

52- L. Coser: Op, Cit. p, 396.

53- T. Parsons: Op, Cit. p, 279.

54- L. Coser: Op, Cit. p, 393.

55- T. Parsons: Op, Cit. p, 579

56- L. Coser: Op, Cit. p, 399.

57-Ibid. p. 398.

58- t. Parsons: Op, Cit. pp, 280 – 286.

59- P. sorokin: Op, Cit. p, 328.